العقيدة والحياة

للدكتور
أحمد بن عبدالرحمن القاضي

العقيدة والحياة

تأليف

الدكتور/ أحمد بن عبدالرحمن القاضي

المشرف العام على موقع العقيدة والحياة

العقيدة والحياة

www.al-aqidah.com

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

الطبعة الأولى

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد :

ففي مطلع عام ١٤٢٨هـ، جرى بتوفيق الله، إطلاق موقع (العقيدة والحياة)، تحت شعار: (موقع علمي يعنى بمعالجة مختلف قضايا الحياة من منظور عقدي) وظل بفضل الله، يؤدي رسالته، من خلال أبوابٍ، وزوايا، ثابتة، ومقالات طارئة، تدور حول القضايا العقدية، والموضوعات الإيمانية، والتربوية، فضلاً عن الفتاوى، والاستشارات، التي تصاغ بأسلوب عقدي، شرعي.

وكان من أثبت هذه الأبواب، وأدومها : (حديث الأسبوع) الذي عرِّف حينها بـ : (مقالة أسبوعية تعالج جانباً من جوانب الحياة من منظور عقدي) . وتمثل كل حلقةً مادة مختصرة، تناسب متصفح (الانترنت) الذي يسئم من المقالات المطولة، ويرغب في التهام أكبر قدرٍ ممكن، في أقصر وقتٍ ممكن. وقد بلغ مجموع حلقات

(حديث الأسبوع) خلال عامين ونصف، نحو مائة مقالة.

وقد كانت تلك الأحاديث شاملة للمتغيرات، والأحداث، والمناسبات الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والكونية، التي يعيشها المسلم خلال عام كامل، فضلاً عن الأحوال الإيمانية للنفس الإنسانية.

وآثرت ألا أكتفي بحصيلة عام واحد من هذه الكتابات، بل انتخبتها من حصيلة عامين ونصف، واصطفيت منها ما له صفة الديمومة، دون ما كان مرتهناً بواقعة معينة. ثم صنفتها، وقسّمتها، موضوعياً، بصرف النظر عن تاريخ نشرها، على النحو التالي :

١- العقيدة والمنهج .
٢- العقيدة والإنسان .
٣- العقيدة والكون .
٤- العقيدة والعبادات .
٥- العقيدة والمجتمع .
٦- العقيدة والمخالفون .

وأرجو أن تقدم هذه الضميمة من الحقائق، والمشاعر، رؤيةً عقدية رائقة، لما يعرض للفرد المسلم من أحوال، وتقلبات في حياته، يبصر بها الأحداث، والأشخاص، والقيم، ويقيس عليها ما سواها، مما لم يتناوله القلم. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

كتبه : د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي
عنيزة . في ١٤٣٠/٨/١

العقيدة والمنهج

العقيدة والحياة

بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، كما قال تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) الصف:٩ والهدى هو العلم النافع. ودين الحق هو العمل الصالح . ومبنى العمل على العلم، فالعلم قبل القول والعمل، كما قال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) محمد:١٩

وأعظم العلم وأشرفه، العلم بالله تعالى،بأسمائه، وصفاته، وأفعاله؛ فإن شرف العلم مبني على شرف المعلوم، ثم العلم بما أخبر به من أمور غيبية، وأصول عقدية، يقام عليه نظام الحياة .

فبين (العقيدة) و (الحياة) صلة وثيقة، وعلاقة حميمة، كصلة الروح بالجسد، وعلاقة الظرف بالمظروف . فالعقيدة الصحيحة تكسب الحياة معنى، وتنصب للإنسان هدفاً، وتبارك العمر وتزكيه، وتسعده وتواسيه . قال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه،

حرر في : ١٨/ ١/ ١٤٢٨هـ

وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) الأنعام:١٢٢، وقال:(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل:٩٧، وقال: (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) التغابن:١١. وتنطبق هذه المعاني على المجتمعات، كما الأفراد، قال تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) إبراهيم:١

وحين تفقد هذه العقيدة، أو تضل، تصبح الحياة جثة هامدةً؛ جسداً بلا روح، رسماً بلا معنى، عبثاً دون حكمة،كبداً دون عوض. قال تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى) طه:١٢٤، ويفقد فاقدها معاني الإنسانية الحقة، وتتعطل جوارحه عن وظائفها الطبيعية، وينحط إلى ما دون مرتبة الحيوان،ويقع في دوامة الغفلة المطبقة، قال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) الأعراف: ١٧٩

وهكذا، فإن العقيدة تسري في الحياة سريان النور في الظلام، وتجري جريان الماء في العروق، ولا يمكن أن تكون مجرد (متعة ذهنية) أو (جدل عقلي) أو (محفوظات متنية) بل هي حكمة الخلق، ومشروع العمر. وكثير من الناس لا يتصور هذا الدور الشمولي للعقيدة في الحياة، ولو تصور لم يستصحب هذا التصور في عموم ماجريات الحياة، ولو استصحبه لم يحسن تنزيله على الواقع .

صبغة الله

صبغ الله حياة المؤمنين صبغةً مميزة، لا تشبهها صبغة، فتفترق عن سائر الصبغات التي تلوث نقاء الفطرة، وأسلوب الحياة البشرية . وتسميتها (صبغة) يدل على شدة نفاذها، وسريانها، في مسارب النفس والشعور، وغشيانها مختلف جوانب الحياة، حتى إن النفس لتصطبغ بها، والحياة تتلون بلونها الفريد . قال تعالى : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) البقرة:١٣٨

١- فهي صبغة للنفس؛ تمنحها معاني صائبة،وتصورات رائقة،تسكب فيها السكينة والطمأنينة .

٢- وهي صبغةٌ للعقل؛ تمنحه القناعة،والاطراد،والصفاء، وتحميه من الشك،والتناقض،والخرافة.

٣- وهي صبغة للأخلاق؛ تصطفي مكارمها، وتنبذ سفسافها،وترقى بها عن قصد الخلق إلى العبادة.

٤- وهي صبغةٌ للسلوك ؛ تجلله بالسمت الحسن، والأدب الجم، والمنطق الرفيع،

حرر في : ٢٩ / ٢ / ١٤٢٨ هـ

ومراعاة الآخرين.

٥- وهي صبغة للعشرة الزوجية؛ تعقدها بكلمة الله، وتحوطها بأمانة الله،فتجعلها مودةً، ورحمة.

٦- وهي صبغةُ للمرأة؛ تنشئها على الصون،والطهر ،والقنوت، وحفظ غيبة الزوج،وتربية الأجيال.

٧- وهي صبغة للمجتمع بأكمله؛ تقيم قواعده على المحبة الإيمانية، والتكافل، وتشيع فيه الفضيلة.

٨- وهي صبغة للعلاقات العامة؛ تضمنها بالتقوى، والوفاء بالعقود، وتنفي عنها الغدر والخيانة .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي، رحمه الله : (أي الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده، في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغةً وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفةً من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره طوعاً، واختياراً، ومحبةً، وصار الدين لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب، الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور) تيسير الكريم الرحمن : ٩٨/١

(ومن أحسن من الله صبغة) أي لا أحد أحسن ، ولا صبغة أحسن . وذلك يدل على الحسن المطلق الذي تقصر عنه سائر الصبغات . ولا ريب أن ثَمَّ صبغات، ملوثة، شائهة ، تصطبغ بها فئام من الناس، بسبب إعراضهم عن دين الله، واجتيال شياطين الإنس والجن لهم ، كما قال في الحديث القدسي : (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم) رواه مسلم .

ومن صور الاجتيال الشيطاني، الذي صبغ بغير صبغة الله :

الصبغة الشركية : التي استرقَّت العباد للعباد، وأوقعتهم في الظلم العظيم . قال تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم) لقمان: ١٣

الصبغة اليهودية : التي نفخت في النفوس الكبر، والجحود، والعدوان . قال تعالى: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان

ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين) المائدة: ٦٤

الصبغة النصرانية : التي تاهت بأصحابها، وأضلتهم عن سواء السبيل . قال تعالى : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) المائدة: ١٤

الصبغة الحيوانية : التي يتردى في ظلماتها الذين لا يعلمون، في غفلة مطبقة، وحياة بهيمية. قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) الأعراف: ١٧٩

وبإزاء هؤلاء جميعاً، تبدو هذه الأمة المختارة، مصطبغة بصبغة الله، نقية، زكية، توحد الخالق، وتنفع الخلق. قال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) آل عمران: ١١٠، وقال: (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) آل عمران: ١٦٤.

وتكتمل هذه الصبغة حين يصبغ الله أهلها بالنعيم المقيم في الجنة، كما صبغهم بالمنهج القويم في الدنيا .

التدين الحق

إن الدينونة لله تعالى بالطاعة، وإخلاص العبادة له وحده، دون ما سواه، مقتضى الفطرة السوية، وعنوان كمال الإنسانية. ويتفاوت الناس في التحقق بها تفاوتاً كبيراً؛ فمن متجردٍ عن هواه، مقبلٍ على مولاه، يعبده كأنه يراه، فذاك بأكرم المنازل، ومن متنكرٍ لفطرته، متمردٍ على ربه، معرضٍ عن طاعته بالكلية، فذاك بأخبث المنازل. وبين هذا وذاك مضمار طويل، ومقامات متعددة، يجري فيها الخلق، ويقفون. وإلى الله إيابهم، وعلى الله حسابهم.

والأنموذج الكامل، والمعيار الدقيق للتدين، ما دل عليه قول الله تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَ?هِيمَ حَنِيفاً، وَ?تَّخَذَ ?للَّه إِبْرَ?هِيمَ خَلِيلاً)سورة النساء ١٢٥/٤ . فتضمنت الآية وصفين عظيمين، عليهما تقوم العبادة الحقة، والدين الأحسن، وهما :

١-الإخلاص التام، المعبَّر عنه بإسلام الوجه لله تعالى، فلا يلتفت إلى أحد سواه .

٢-الإحسان التام، الحاصل بموافقة هدي محمد صلى الله عليه وسلم، واتباع ملة أبيه

حرر في : ٢٦/ ٢/ ١٤٢٨ هـ

إبراهيم، خليلا الرحمن، عليهما السلام .

فحين يتجرد القلب إخلاصاً لله، وتتجرد الجوارح متابعة لرسول الله، تتحقق العبودية الخالصة والدين الأحسن . فالإخلاص يحصل به صلاح الباطن، والمتابعة يحصل بها صلاح الظاهر، وبمجموعهما يصلح أمر العبد كله . وهذا ن هما ركنا العبادة التي لأجلها خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب .

وحين ينزل هذان المعنيان في جذر قلب العبد، ويستقران فيه، يؤتى الخشوع في عباداته، والعدل والإحسان في معاملاته، واللطف والرفق في أخلاقه، ويحبه الله وأهل سماواته، ويطرح له القبول في الأرض. ويجد من يلقاه صدقاً في لفظه، وأمناً في ضميره، وأنساً في معاشرته، كما يجد هو سكينة في نفسه ناشئةً عن التوافق بين الظاهر والباطن، وقوة في قلبه مستمدة من صدقه مع ربه، وعزةً في منطقه ومسلكه نابعةً عن اعتزازه بدينه ومعتقده.

وترسم الآيات الكريمات في خاتمة سورة الفرقان هذا التدين النقي لـ (عباد الرحمن) : (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) إلى قوله :(وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥))

وثمَّ (تديُّن منقوص) ثُلم ، بسبب :

١- آفة قلبية ، وأخلاط فاسدة، من حظ نفس، أو طلب شهرة، أو شرك خفي .

٢- أو شبهة عقلية، أوحتها شياطين الإنس أو الجن ، فعلقت بفؤاده .

٣- أو شهوة جامحة، قدمت محاب نفسه على محاب ربه، فلم يعد هواه تبعاً للوحي .

٤- أو بدعة قبيحة، أفسدت عليه نسق المتابعة، ونظام الشريعة .

٥- أو سوء خلق، ونوع فضاضة،وضراوة ، شوَّهت نسك حاملها .

ومن ثمَّ، كان لا بد من التزكية، والتربية، لمن أراد الفلاح بالفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ بتخليص نفسه من آفاتها ، وترقيتها في سلم الكمال البشري ، كم بين الله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) سورة الشمس ٩١/ ٧-١٠.

العقيدة والفقه في الدين

إن من علامة إرادة الله الخير بالعبد أن يرزقه الفقه في الدين؛ ففي المتفق عليه من حديث معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) .

والفقه في الدين يتناول أموراً عدة :

أحدها : (الفقه الأكبر) الذي هو العلم بالله تعالى، وما ينبغي له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وتنزيهه عن النقص والعيب ومماثلة المخلوقين . قال ابن أبي العز الحنفي، رحمه الله، في مقدمة شرحه لعقيدة الإمام الطحاوي : (فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ عِلْمُ أُصُولِ الدِّينِ أَشْرَفَ الْعُلُومِ ، إِذْ شَرَفُ الْعِلْمِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ . وَهُوَ الْفِقْهُ الْأَكْبَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فِقْهِ الْفُرُوعِ ، وَلِهَذَا سَمَّى الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ - رحمه الله تعالى - مَا قَالَهُ وَجَمَعَهُ في أَوْرَاقٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ « الْفِقْهَ الْأَكْبَرَ » وَحَاجَةُ الْعِبَادِ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ حَاجَةٍ ، وَضَرُورَتُهُمْ إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا حَيَاةَ لِلْقُلُوبِ ، وَلَا نَعِيمَ وَلَا طُمَأْنِينَةَ ، إِلَّا بِأَنْ تَعْرِفَ رَبَّهَا وَمَعْبُودَهَا وَفَاطِرَهَا ، بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَيَكُونَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَحَبَّ إِلَيْهَا مِمَّا سِوَاهُ ، وَيَكُونَ سَعْيُهَا فِيمَا يُقَرِّبُهَا إِلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ)

حرر في : ١٨ / ٨ / ١٤٢٨ هـ

الثاني : الفقه في الأصول، ومعرفة مقاصد الشريعة، والكليات العامة، والبصيرة بالضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، وتحصيل المصالح، ودرء المفاسد. وهو فقه عزيز، وملكة تنشأ عن طول الممارسة، والرسوخ في العلم .

الثالث : الفقه في الفروع : بمعرفة الأحكام الجزئية، والحلال والحرام، بأدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة، دون تقليد، أو جمود .

الرابع : الفقه في التطبيق؛ بإلحاق النوازل بأبوابها، وحسن تصورها، وتكييفها، وتوجيهها الوجهة المطابقة لها . وهذا لا يحسنه كل أحد .

وثمرة هذا (الفقه في الدين) أن يعبد العبد ربه على بينة ! فشتان بين من يعبد الله جرياً على المألوف، أو موافقةً للموروث، وبين من يعلم ما يأتي وما يذر . قال تعالى : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) محمد: ١٤، وقال : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) هود: ١٧، وأمر نبيه أن يقول: (إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ) الأنعام : ٥٧

وكثير من الناس يفقد (البينة) ولا يرفع بها رأساً، ولا يرى بفقدها بأسا، ولهذا تنكشف الأمور في الفتنة والامتحان؛ ففي صحيح البخاري، من حديث أسماء، رضي الله عنها، مرفوعاً: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ أَوْ قَرِيبَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ يُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ لَهُ مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُوقِنُ لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا، وَآمَنَّا، وَاتَّبَعْنَا، فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ صَالِحًا، فَقَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُؤْمِنًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ، أَوْ الْمُرْتَابُ، لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ؟ قَالَتْ أَسْمَاءُ: فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ) وفي لفظ عند أحمد، والطبراني : (فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الشَّكِّ حَيِيتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ) .

وحريٌ بالمؤمن الفَطِن أن ينشر ديوانين : ديوان (لِمَ ؟) ، وديوان (كيف ؟) لكي يتبين (الإخلاص) لله تعالى، و (المتابعة) لنبيه صلى الله عليه وسلم، فيحقق البينة، والفقه في الدين، وبذلك (يَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) الأنفال: ٤٢ .

قل هذه سبيلي (١)

(وحدة السبيل)

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين) يوسف: ١٠٨، وقد تضمنت هذه الآية، على قلة كلماتها، توصيفاً واضحاً، دقيقاً، لسبيل المؤمنين، الذي لا يلتبس بسبيل المجرمين، ولا المبتدعين . ويمكن أن نتبين منه المعالم التالية :

أولاً : (سبيل الله) التي بعث بها أنبياءه واحدة، كما أن صراطه واحد ! قال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) الأنعام: ١٥٣. فالحق واحدٌ لا يتعدد، وليس للحق عدة صور في قضية واحدة، ولكن الناس يتفاوتون في إصابته، وفي القرب منه، بحسب ما يملكون من مقومات الصواب و أدواته؛ من الإخلاص، والصدق، والعلم، والاجتهاد . ولا يجوز، بحال، تمييع قضية الصواب في المسائل القطعية اليقينية، بدعوى أن الحقيقة نسبية ! أو أن ليس لأحدٍ أن يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة ! فإن هذا الزعم يقتضي إبطال النبوات، وإلغاء الوحي ، وتسويغ جميع الأفكار، مهما كانت زائغة، كما هو مذهب دعاة وحدة الوجود، من زنادقة الصوفية، الذين يصوِّبون كل قول،

حرر في : ١٠/ ٤/ ١٤٢٨ هـ

وكل عمل، وكل نحلة، كما قال كبيرهم، ابن عربي :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وألواح توراة وكعبة طائف
وإنجيل رهبان ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

ويشابههم من بعض الوجوه، دعاة الليبرالية (الحرية) ، الذين يغالون في احترام (الرأي الآخر) و (قيم الآخر) مهما كانت، دون تمييز بين ما يقع في دائرة الأصول والاعتقادات، وما يقع في هامش النظر والاجتهادات . وقد أدى بهم الحال، واطّراد المقال إلى المناداة بإخضاع النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، لمعاول النقد البشري، ورفع الحصانة عنها .

ويقابل هؤلاء نفر ضيقو الأعطان، لا يحتملون اختلاف الأنظار في مسائل الاجتهاد، ويريدون أن يسوقوا الناس مساقاً واحداً، وفق رؤيتهم الخاصة، في مسائل يسوغ الاختلاف فيها، بل ربما كان الخلاف فيها محفوظاً في جيل الصحابة، والتابعين، وأتباعهم. وحين يختلف معهم أحدٌ، في مسألة فرعية، يناصبونه العداء، ويفجرون في الخصومة، زاعمين أن ذلك هو السبيل .

لابد من تمييز واضح، ورؤية بينة، لمعالم السبيل الجامع لما شرع الله لجميع أنبيائه، من لدن نوح، إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم، وهو إقامة الدين، وصيانته، وحماية جنابه، وعدم التسور عليه بدعوى نسبية الحقيقة، أو احترام الرأي الآخر. ولا بد أيضاً من الحذر من الوقوع في معمعة التفرق، واصطناع الخصومات، ومصارعة الأوهام، والنفخ في صورة بعض الفروع، ومساواتها بالأصول . وإن كان ذلك لا يلغي دوام البيان ، وإيضاح الحق، والدعوة إلى سواء السبيل . وقد جمع الله القضيتين في آية جامعة، فقال : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الشورى: ١٣ ، فأمر بإقامة الدين، ونهى عن التفرق فيه .

قل هذه سبيلي (٢)

(الإخلاص)

تقدم الحديث عن المعلم الأول للسبيل، المستمد من قول الله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

المعلم الثاني : الإخلاص، المستفاد من قوله : (أدعو إلى الله) : فالدعوة إلى هذا السبيل دعوةٌ إلى عبادة الله وحده، والدخول في دينه، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك . وليست دعوةً قومية، ولا إقليميةً، ولا لتحقيق أمجادٍ شخصية . قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله، في مسائله على كتاب التوحيد: (التنبيه إلى الإخلاص؛ لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه) !

وأمر الإخلاص عظيم، وهو في نفس الوقت خفي، لا يطلع عليه إلا علام الغيوب. والنفس، والهوى، والشيطان، تتناوشه من كل جانب، ولا يُعصم إلا الموفقون. يلتبس لدى كثير من الناس، وإن بدا صالحاً، غيوراً، متنسكاً، أمر الدعوة إلى الله، بأمر الدعوة إلى النفس، بدرجات متفاوتة . وهذا الالتباس المسمى (الرياء) ربما قوّض العمل من أصله، ونسفه من أساسه، وربما أوهنه، وأضعفه .

حرر في : ١٧/ ٤/ ١٤٢٨ هـ

ولم يزل أنبياء الله يعربون بشكل واضح، وإعلان جلي، عن ربانية هذه الدعوة، وخلوصها من حظوظ النفس، كما قال نوح، وهود، وصالح، ولوط، عليهم السلام، عبارة واحدة : (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، وقال خاتمهم، محمد صلى الله عليه وسلم : (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً) الشورى: ٢٣

ومن هنا جاءت عناية السلف الصالح بتحقيق الإخلاص، وتعاهده، عظيمة، ودرايتهم بآثاره وثماره واعية . عرّفه سهل التستري، رحمه الله، فقال: (أن تكون حركته، وسكونه، في سره، وعلانيته، لله تعالى، وحده، لا يمازجه شيء؛ لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا). قال يوسف بن الحسين، رحمه الله : (أعز شيء في الدنيا الإخلاص. وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر) !

وحين يستيقن الداعي أنه يدعو إلى الله، لا إلى سواه، وتخلص نفسه من حظوظ نفسه، وتخلص نفسه من إرضاء الأصحاب والمشايعين، فضلاً عن الخصوم والمخالفين، يستنير قلبه، ويجتمع همه، وتنطلق طاقاته المكنونة في الاتجاه الصحيح . وما أحوج الدعاة إلى طول درس، وعمق نظر، في مسارب النفوس، وتلونها، والبصيرة في عواقب الأمور ومآلاتها، إذاً لاستراحوا من آفات كثيرة، من جنس :

١) حب الظهور، والتصدر، لغير الله .

٢) حب التفوق وملاحظة الأقران .

٣) محبة انخفاض الآخرين .

٤) التعلق بالألقاب والمقامات ، وحب الثناء .

٥) اتخاذ العلم سلماً للمطامع الدنيوية المادية .

٦) التعرض للطبوليات، أي مسائل الشذوذ والشهرة، كما قيل: (زلة العالم مضروب لها الطبل) .

٧) الشغب، والاشتغال بالأغلوطات، لاستجلاب الأنظار .

٨) كتمان الحق، وربما قول الباطل، والإحجام عن البيان،خوفاً من التصنيف.

إن الإخلاص في الدعوة، كما في سائر العبادات، منار السبيل، وحياة القلوب، وحلاّل العقد، والغذاء الكافي، والدواء الشافي، الذي لا يستغني عنه سالك السبيل .

قل هذه سبيلي (٣)

(العلم)

المعلم الثالث من معالم السبيل : ما دل عليه قوله تعالى (على بصيرة) : وهو العلم الذي يورث اليقين، وينفي الشك والتردد . إن مبنى هذا الدين على الوحي المعصوم، من الكتاب العزيز، والسنة الصحيحة، وليس على الآراء، والنظريات البشرية، ومن ثمَّ كان لزاماً على سالكي هذا السبيل أن يتفقهوا في الدين، ويتبصروا في مقاصده . وقد امتن الله على المؤمنين بهذه النعمة، فقال : (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) آل عمران: ١٦٤

إن السبيل القاصد يحتاج إلى كتاب وحكمة، يستقران في صدور الذين أوتوا العلم. ولن تغني المناهج العاطفية، ولا الشعارات الانفعالية شروى نقير إذا ادلهمت الخطوب، وتشابهت السبل . لا بد من نور النبوة لكشف غلس الشبهة .

والعلم المقصود هاهنا، هو العلم النافع، ويتناول أنواعاً متلازمةً، منها :

١- العلم بالله : وقد عرَّفه ابن رجب، رحمه الله، بقوله : (هو ما باشر القلب،

حرر في : ٢٤ / ٤ / ١٤٢٨ هـ

فأوقر فيه معرفة الله، وعظمته، وخشيته، وإجلاله، وتعظيمه، ومحبته . ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب، خشع، فخشعت الجوارح تبعاً له) شرح حديث أبي الدرداء ١٩

ولأهل هذا العلم بصيرة، وفراسة، وتوفيق، لا يؤتاها القاسية قلوبهم من ذكر الله، وإن حملوا المصاحف والمحابر ! أما هؤلاء فقد أورثهم العلم خشوعاً، وتسبيحاً، وعبادة، ثم زادهم ذلك خشوعاً ، كما وصفهم تعالى بقوله : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) الإسراء: ١٠٧-١٠٩

وما أشد حاجة الأمة لهذا الصنف من أهل الله، الصادقين مع ربهم، وما أعظم أثرهم في هداية الناس، وتمسيكهم بالكتاب .

٢- العلم بشرع الله : بمعرفة أحكامه وحدوده، وحلاله، وحرامه ؛ ذلك أن نظام الملة شامل لمصالح العباد المتنوعة، في عباداتهم، ومعاملاتهم، وآدابهم، وسلوكهم. ولا بد أن ينفر طائفةٌ من أهل النباهة والحصافة، ليكونوا أوعيةً للعلم، وإخاذات يصدر عنها الناس في جليل الأمر ودقيقه، وإلا اتخذ الناس أئمةً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا، وأضلوا . قال ابن رجب، رحمه الله : (العلماء بما أنزل الله على رسوله هم الأدلاء، والذين يهتدى بهم في ظلمات الجهل، والشبه، والضلال. فإذا فقدوا ضل السالك. وقد شبه العلماء بالنجوم. والنجوم فيها ثلاث فوائد : يهتدى بها في الظلمات، وهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين الذين يسترقون السمع منها . والعلماء في الأرض تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة : بهم يهتدى في الظلمات، وهم زينة للأرض، وهم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويدخلون في الدين ما ليس منه، من أهل الأهواء. وما دام العلم باقياً في الأرض، فالناس في هدى) شرح حديث أبي الدرداء : ١٦

٣- العلم بالواقع : وهو البصيرة بحال الناس، ومدى قربهم، أو بعدهم عن سبيل الله، ومعرفة الأسباب والدواعي لذلك، وتنزيل الأحكام على الوقائع، وحسن تقدير المصالح والمفاسد، والدراية بمآلات الأمور، ومعرفة سنن الله في خلقه .

وهذه الأنواع الثلاثة متلازمة، وإنْ بنسب متفاوتة . فمن جمع منها الحظ الأوفر، كان من الراسخين في العلم، الذين جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس،

ومن قصر في شيءٍ منها فاته من الريادة، والسيادة، بقدر قصوره أو تقصيره .

وفضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

وبه يتبين خطأ المخالفين في هذا الباب، وهم أصناف :

١- أهل التجهيل : المزهدون في العلم، المتنقصون لأهله، الصارفون الناس عنه.

٢- أهل الرأي : المحكمون للنظر والقياس مع توافر النصوص .

٣- أهل الكلام : المقدمون للعقول على النص المعصوم في مسائل الاعتقاد .

٤- أهل المناهج العاطفية : ذات الضحالة الشرعية، والشعارات السطحية .

لابد للأمة، كي تتعافى، من الرجوع إلى السبيل القويم، والسير على الصراط المستقيم .

قل هذه سبيلي (٤)

(الاجتماع)

المعلم الرابع من معالم السبيل : ما دل عليه قوله تعالى : (أنا ومن اتبعني) وهو الجماعة . إن دين الإسلام دين جماعة وائتلاف، لا دين تفرق واختلاف. إنه مشروع جماعي ينتظم جميع أفراده في عقد فريد، ونظام بديع، يوزع عليهم الواجبات، ويحفظ لهم الحقوق . وليس دين رهبانية، يعيش أفراده في جزر متناثرة، لا يجمعهم عقد اجتماعي، أو مشروع حضاري، كما هو حال كثير من الملل والنحل الخداج .

منذ أن يعتنق المرء هذا الدين يشعر شعوراً عميقاً بأنه منخرطٌ في أمة، منغمس في مجتمع. له هدفٌ واضح، وخطةٌ بينة . ولذا، كان يؤمر المسلم الجديد، في مبدأ الإسلام، بالهجرة، وينهى عن التعرب؛ أي أن يرجع الأعرابي المهاجر إلى باديته، لأنه بات عضواً مسؤولاً في المجتمع الوليد، يكثر سواده، ويسهم في بنائه .

ورائد هذا السبيل، وقائد هذا المجتمع، رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون أتباعه : (أنا ومن اتبعني) . وبعد وفاة هذا القائد، بقيت القيادة لسنته، ومنهجه، وصار المتمسكون بها، المُمَسَّكون بها، هم (أهل السنة والجماعة) . فقد جمعوا

حرر في : ١/ ٥/ ١٤٢٨ هـ

وصفين، متلازمين :

١) السنة : وهي اسم جامع لكل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ من الأقوال، والأعمال، الظاهرة، والباطنة .

٢) الجماعة : وهي الاجتماع على الحق ، والتعاون على البر والتقوى .

وهؤلاء هم علماء الأمة، وفقهاء الملة، المعتصمون بالدليل من الكتاب والسنة، وهم (السواد الأعظم) ، وإن قلَّ عددهم . قال تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) آل عمران: ١٠٣، وقال: (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الشورى: ١٣، فالاعتصام بحبل الله: لزوم الكتاب والسنة،وإقامة الدين بالجماعة.

ومن لوازم هذا السبيل الجماعي ، ما يلي :

أولاً : الأمر بلزوم جماعة المسلمين، وتحريم مفارقتها، كما في الحديث المتفق عليه : (من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية) .

ثانياً : وجوب طاعة ولاة الأمر ، بالمعروف، أبراراً كانوا أم فجاراً، وإقامة الحج والجمع والأعياد، والجهاد معهم ، وتحريم الخروج عليهم، وشق عصا الطاعة . قال صلى الله عليه وسلم : (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) رواه مسلم .

ثالثاً : الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصيانة الجماعة عما يضرها . قال تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) آل عمران : ١٠٤

رابعاً : التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان. قال تعالى:(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) المائدة : ٢

خامساً : النهي عن التفرق والاختلاف والتحزب . قال تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) آل عمران : ١٠٥، وقال : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) الأنعام : ١٥٩

وكل هذه النصوص، وأمثالها كثير، تؤسس لهذا المعلم الأصيل من معالم هذا السبيل (أنا ومن اتبعني)، وتدعو المؤمن الحق أن ينخرط في جسم الأمة الواحدة، ويصبح لبنةً في بنيانها، ويسعى جاهداً في الدعوة والإصلاح، وينأى بنفسه عن

ثقافة العزلة، والسلبية، والانكفاء على الذات، ومقاطعة المجتمع المسلم، مهما بلغت أخطاؤه، إلا أن يرى شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، ففي هذه الحال، إذا صح التقدير، وخلا من الشطط، وسعه أن يشتغل بخاصة نفسه، ويدع أمر العامة. وإلا فدونه ساح فساح، ومُراغماً كثيراً وسعة، للنفع، والبناء، مع إخوانه المؤمنين ضمن الجماعة المسلمة، المنضوية تحت ولي أمر واحد، تسعى لهدف واحد، هو عبادة رب واحد .

قل هذه سبيلي (٥)

(التنزيه)

المعلم الخامس من معالم السبيل ، سبيل النبي صلى الله عليه وسلم، وسبيل من اتبعه من المؤمنين : (التنزيه) المستفاد من قوله في الآية : (وسبحان الله) .

إن تنزيه الرب سبحانه من أسس الدين، وقواعد دعوة المرسلين ؛ فإنه سبحانه أهل الحمد، والثناء، والمجد ، كما قال : (الحمد لله رب العالمين) الفاتحة : ١ ، فهو المستحق وحده لصفات الكمال ، ونعوت الجلال ، ولكن المبطلين شانوا هذا (المثل الأعلى) بصفات النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين ، فاحتيج إلى التنزيه والتسبيح . ومعنى (سبحان الله) أي تنزيهاً لله . ولهذا كان (الحمد) و (التسبيح) مستوعبان لمعاني الإيمان ؛ فعن أبي مالك الأشعري، رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله، تملآن، أو تملأ، ما بين السماوات والأرض) رواه مسلم .

ولا بد لسالكي السبيل من التسبيح :

أولاً : في أنفسهم ، فتمتلئ قلوبهم بتنزيه الرب وتقديسه، واعتقاد المثل الأعلى له .

حرر في : ٨/ ٥/ ١٤٢٨ هـ

ثانياً : في ألسنتهم ، فتلهج دوماً بهذا الذكر الكريم : (سبحان الله) .

ثالثاً : في دعوتهم وتعليمهم ، فيشيعوا معاني التنزيه في بياناتهم، وخطبهم، ومواعظهم.

رابعاً : في تربيتهم للناس ، فيوقرون في قلوبهم تعظيم الرب، وتنزيهه عن الأوهام، والظنون الفاسدة ؛ فعن جبير بن مطعم، رضي الله عنه، قال : (جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رسول الله: نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : سبحان الله! سبحان الله! فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال : ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد) الحديث . رواه أبو داود

ومن صور تنزيه الرب، سبحانه :

١- تنزيهه في ذاته، وأسمائه، وصفاته، كما تقدم، فيصان عن صفة النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين، دون أن يفضي ذلك إلى التعطيل . بل يثبت لله صفات الكمال التي أثبتها لنفسه في كتابه، أو أثبتها له نبيه في سنته، إثباتاً بلا تمثيل، وينزهه تنزيهاً بلا تعطيل . فلئن كان الممثل يعبد صنماً، فإن المعطل يعبد عدماً .

٢- تنزيهه في أفعاله ، فيعتقد فيها كمال الحكمة والتعليل، وينزهه عن العبث، والسفه، والظلم، ونحو ذلك . ولا يقتصر على محض المشيئة، فإن مشيئته، سبحانه، مقرونة بحكمته .

٣- تنزيهه في شرعه ، فيعتقد أن شريعته عين الكمال، وأنها محققة لمصالح العباد في كل جيل، وقبيل، لكل زمان ومكان. وينفي عنها ما تقوّله الظالمون، الطاعنون في عدلها، وشمولها، وتوازنها، وديمومتها . قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) الأنعام: ١١٥، صدقاً في أخبارها، وعدلاً في أحكامها (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) المائدة: ٥٠

فسبحان الله عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته .

قل هذه سبيلي (٦)

(البراءة من المشركين)

المعلم السادس من معالم السبيل : البراءة من المشركين، المتمثل في قوله (وما أنا من المشركين) . وهذا معلم منهجي أصيل في سبيل المؤمنين، ولازم ضروري، لا يتصور انفكاكه عن الإيمان الصحيح لكونه مقتضاه . ومن دلائل ذلك على المستوى النفسي القلبي :

١- قال تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) الممتحنة : ٤، فلم تزل هذه الأسوة الحسنة باقية في الموحدين .

٢- قال تعالى : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ

حرر في : ١٥ / ٥ / ١٤٢٨ هـ

حَلِيمٌ) التوبة: ١١٣-١١٤

٣- قال تعالى : (لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) المجادلة: ٢٢ فإذا استوثقت رابطة الإيمان في القلب لم تتمكن أي رابطة أخرى من حل عقدتها المكينة، كما أنها تأبى أن يجامعها في القلب مودة وميل إلى خصوم هذا الإيمان، مهما بلغت درجة قربهم .

وأما دلائل هذا المنهج من الناحية العملية الإجرائية، فكثيرة، منها :

١- قال تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) المائدة: ٥٥-٥٧ ، والولاية هي النصرة .

٢- قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)المائدة: ٥١-٥٢ ، فنهى عن موالاتهم، وعدَّ محالفتهم من دون المؤمنين سمة نفاق .

٣- قال تعالى : (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) التوبة :١-٢

إن هذا الإعلان العام بالبراءة من الشرك وأهله، ومجانبة سبيل المجرمين، من أعظم سمات سبيل المؤمنين، ومن أعظم أسباب استجلاب النصر، والتمكين، وحصول رضا الرب. فلا يجوز بحال أن يلتبس السبيلان، لا من ناحية المودة القلبية،

ولا من ناحية الإجراءات العملية . فلأهل الإسلام عقائدهم المميزة، وشرائعهم الخاصة، وأخلاقهم، وآدابهم، المستمدة من الوحي المنزل. ويجب على علماء المسلمين، وقادتهم، المحافظة على هذا النبع الصافي، وعدم الذوبان في بحر (العولمة) الكدِر .

ولأجل هذا جاءت النصوص النبوية محذرة من مشابهة المشركين، في عقائدهم، وعباداتهم، وعاداتهم المختصة بهم، بل ومن مساكنتهم، لغير ما ضرورة أو حاجة، لما يفضي إليه ذلك من إذابة الحواجز الإيمانية، والميعة العقدية .

ولا يخفى أن هذا النقاء في الولاء والبراء، لا يسوغ عدواناً، ولا يستبيح حقوقاً، بل لا يلغي براً وإحساناً، فضلاً عن الحق والقسط. قال تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) الممتحنة: ٨

العقيدة والاتباع

(بدعة المولد)

(الشهادتان) أعظم أركان الإسلام، ومبانيه العظام. (وإنما جعلت هاتان الشهادتان ركناً واحداً، مع تعدد المشهود به؛ إما : لأن الرسول مبلغ عن الله تعالى، فالشهادة له صلى الله عليه وسلم بالعبودية والرسالة من تمام شهادة أن لا إله إلا الله. وإما : لأن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال، وقبولها، إذ لا صحة لعمل، ولا قبول، إلا بالإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ فبالإخلاص لله تتحقق شهادة أن لا إله إلا الله، وبالمتابعة لرسول الله، تتحقق شهادة أن محمداً عبده ورسوله) نبذة في العقيدة الإسلامية. لشيخنا محمد بن صالح العثيمين، رحمه الله. ص ١١

لقد استقر في قلوب السابقين الأولين، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، أن هذا الدين قد اكتمل، وأن النعمة قد تمت، فلا حاجة لزيادة، أو نقصان، أو تعديل، أو تلفيق، كما امتن الله بذلك على عباده، في موقف عظيم، ومنسك جليل، يوم عرفة، في حجة الوداع، فقال : (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً) المائدة: ٣. وسد نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم كل منفذٍ للبدعة الأصلية، أو الإضافية، أو

حرر في : ١٣ / ٢ / ١٤٢٩ هـ

التركية، بقوله : (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ) متفق عليه، وقوله : (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) متفق عليه.

وقد فقه الصحابة هذا المعنى ، فلما قبَّل عمر، رضي الله عنه، الحجر الأسود، قال: (إني لأعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ، ما قبلتك) رواه الجماعة . قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله : (وفي قول عمر هذا، التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها. وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يفعله، ولو لم يعلم الحكمة فيه) فتح الباري: ٤٦٣/٣ . وقال عمر، رضي الله عنه، أيضاً : (ما لنا وللرَّمل ، إنما كنا راءينا به المشركين، وقد أهلكهم الله . ثم قال : شيء صنعه النبي صلى الله عليه وسلم فلا نحب أن نتركه) رواه البخاري . وفي رواية : (فيما الرَّملانُ الآن ، والكشف عن المناكب ، وقد أطَّى الله الإسلام، ونفى الكفر وأهله ؟ ومع ذلك، لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

وكما تقرر عندهم لزوم السنة، واتباع الأثر، تقرر أيضاً كمال النفرة من البدع، والمحدثات، في وقائع مشهورة، حفظتها دواوين الإسلام؛ كقصة عمر، رضي الله عنه، مع صبيغ بن عُسل، وقطعه لشجرة الحديبية حين رابه أمر من ينتابها من الناس، ويتحرى الصلاة عندها، وكفعل ابن مسعود، رضي الله عنه، مع النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد والنسك، والنفر الذين اتخذوا عريفاً يأمرهم بالذكر بعدد معين، في هيئة خاصة. وغير ذلك .

وتلك قضية بدهية؛ فكيف يسوغ التعبد لله تعالى بغير ما شرع ؟! وكيف يصار إلى أوضاع، وهيئات محدثة، لم يأت بها الرسول؟! أليس المقصود الأعظم رضا الله، ومحبته؟ إذاً، فالأمر واضح : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ ، فأي دعوى لمحبة الله، خلاف هدي رسول الله، فهي دعوى كاذبة، مهما تذرعت بالنوايا الحسنة، وزوقت من الحجج الداحضة. وقد كان السلف يسمون هذه الآية آية المحنة.

وفي هذا السياق البدعي تأتي بدعة المولد النبوي، التي حدثت في قرون متأخرة، مضاهاةً للنصارى في تمجيدهم لميلاد المسيح، عليه السلام، فنفقت في عصور الجهل،

وفشت تحت حكم دويلات الرفض، حتى عمت معظم المجتمعات الإسلامية. وصاحب تلك البدعة مظاهر متفاوتة في سلم الابتداع، من تدبيج القصائد، والمدائح، وإنشادها، والغلو في شخصه صلى الله عليه وسلم، وإطرائه الذي نهى عنه بقوله : (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) رواه البخاري، حتى قال بعضهم في مدحه، وقد استجره شيطان الغلو :

يا أكرم الخلق ما لي من ألـوذ به
سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن يوم معادي آخذاً بيدي
عفواً، وإلا فقل: يازلـة القدم
فإن من جودك الدنيا وضـرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

فيا سبحان الله! ماذا أبقى لله؟! وربما صاحب تلك الموالد، فواحش ومنكرات، واختلاط رجال بنساء، وفتن وأهواء، تحت مسمى (محبة النبي) !

هل ساءل هؤلاء أنفسهم سؤالاً بسيطاً : أين الصحابة، والتابعون، وتابعوهم بإحسان عن هذه التسويلات؟ أهم أشد حباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم، حتى سبقوهم إلى هذه المكرمات؟ أم إنها استزلال من الشيطان، وخداع للنفس المفرطة في جنب الله، بالتشاغل بهذه العبثيات، وهجران السنن المحكمات ؟

إن (العقيدة) الصحيحة، تورث صحة (الاتباع). وإن ما بين (العقيدة) و (الاتباع) كما بين شِقَّي (الشهادة) سواءً بسواء. والله المستعان .

العقيدة والعلم

(العلم) محمود لذاته . وهو وصفٌ شريف، أطبقت جميع الملل والنحل، والثقافات، على مدحه، وطلبه، والثناء على أهله وحملته. ولأجله عُقدت الحلق، وثُنيت الركب، وشُدَّت الرحال، وشُيدت المعاهد والجامعات. وقديماً قيل : (العلم نور، والجهل ظلام) .

وحقيقة العلم، من حيث هو، كما قال الجرجاني : (الاعتقاد الجازم، المطابق للواقع. وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل. والأول أخص من الثاني. وقيل: العلم هو إدراك الشيء على ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه. وقيل: هو مستغنٍ عن التعريف. وقيل: العلم: صفة راسخة، تدرك بها الكليات والجزئيات. وقيل: العلم، وصول النفس إلى معنى الشيء) التعريفات : ١/ ٤٩.

ومؤدى هذه التعريفات متقارب؛ فهو انكشاف وصف ذميم ، وهو الجهل والخفاء، وحلول وصفٍ حميد، وهو العلم والبيان. لذلك كان العلم محموداً.

إلا إن للعلم في الإسلام شأن آخر، يزيد عن سائر الثقافات، والإيديولوجيات؛

حرر في : ٢٥/ ١٠/ ١٤٢٩ هـ

فإن العلم دين وعبادة ، وليس مجرد متعة ذهنية، أو غريزة استطلاعية، بل هو أساس التعبد لله عز وجل، الذي لأجله خلق الله الخلق، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وجعل يوم الفصل .

ومبدأ العلاقة بين الدين والعلم ، تتمثل في العلاقة بين (العقيدة) و(العلم) . فأصل شجرة العلوم في الإسلام، وساقها، الذي تتفرع منه جميع المعارف، هو الإيمان بالله تعالى، الذي يُمد بقية العلوم بالغذاء النافع، ويصفيها من الأوشاب الضارة، وينميها، ويزكيها، فتستحيل العلوم، على اختلاف أنواعها، سياحةً إيمانيةً للعقل البشري، على نور من الله، تنفع عباد الله، وتبصرهم، وتعينهم على مواجهة الكبد الذي يلقونه .

فـ (العلم) أساس الخشية : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر/٢٨

و (العلم) ثمرة التقوى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) البقرة/٢٨٢

و (العلم) سبب الاستبصار : (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) سبأ/٦

و (العلم) جماع الخير : (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) البقرة/٢٦٩

و (العلم) شرط في القيادة، والسيادة، والريادة : (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) البقرة/٢٤٧

ولأجل هذه المنزلة الرفيعة للعلم، لم يقع في الإسلام خصومة بين العلم والدين، كما وقع في النصرانية. ولم ينشأ شعور بالتحدي والتجاذب، بين (العلم الإلهي) و (العلم البشري) كما توحي بذلك الفلسفة اليونانية والثقافات الجاهلية. بل كانت العلاقة بين العلم والدين، علاقة دورية، متكاملة، فالعلم المعصوم (الوحي) ينشئ المعارف الصحيحة، والاعتقادات الصائبة، في القضايا الكبرى، ويمنح العقل البشري (البينة) و (الاطِّراد) و (التناسب) الذي يستريح معه، ويقتنع به، ويمنح القلب البشري (السكينة) و (الطمأنينة) و (اليقين) الذي يهنأ به، ويؤدي معه وظائفه الطبيعية. وفي ظل هذا التوافق ينطلق الإنسان في استطلاع المجهول، وتحصيل العلوم

التجريبية، في حرية، واستبصار، وتفكر، واعتبار : (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) يونس/١٠١

وكل علم لا يترعرع في هذه الأحضان الآمنة، علم شائه، خداج، وربما استحال نقمةً على حامليه، ودماراً على العالمين؛ كما هو الشاهد التاريخي، والمعاصر، للعلوم التي شردت عن نور النبوة، وتهوكت بعيداً عن مشكاة الإيمان، فأنتجت أسلحة الدمار الشامل؛ من بيولوجية، ونووية، وغيرها، وأهلكت الحرث، والنسل، والأخضر، واليابس. وأشد منها فتكاً تلك النظريات، والأفكار، التي تتمظهر بالعلم، وتفسد القول، والقلوب، والدنيا والآخرة، لما خرجت عن سياقها الصحيح .

العقيدة والعمل

لا تخطئ عين القارئ لكتاب الله ذلك الاقتران الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح؛ فلا يكاد يذكر الإيمان بمختلف تصرفاته، إلا ويتبع بذكر العمل بمختلف تصرفاته، وربما جرى العكس . ومن شواهد ذلك :

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) سورة البقرة ٢/٢٥

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً) سورة الكهف ١٨/٨٨

(فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) سورة الأنبياء ٢١/٩٤

إن ثَمَّ تلازماً وثيقاً بين الاعتقاد والعمل، لا ينفك! ذلك أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل. فشجرة الإيمان تزرع في القلب ببذرة من المعارف والتصديقات الجازمة، ثم تنمو، وتشتد، وينشأ لها فروع وأغصان من الأعمال القلبية؛ كالمحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، ثم تثمر أقوالاً وأعمالاً صالحة؛ كالدعاء، والذكر، والصلاة، والزكاة،

حرر في : ١٨ / ٣ / ١٤٢٨ هـ

والصوم، والحج . قال مالك بن دينار، رحمه الله: (الإيمان يبدأ في القلب ضعيفاً، ضئيلاً، كالبقله، فإن صاحبه تعاهده، فسقاه بالعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدغل، وما يضعفه، ويوهنه،أوشك أن ينمو، ويزداد، ويصير له أصل، وفروع، وثمرة، وظل، إلى ما لا يتناهى، حتى يصير أمثال الجبال. وإن صاحبه أهمله، ولم يتعاهده، جاءه عنز فنتفتها، أو صبي فذهب بها، أو كثر عليه الدغل فأضعفها، أو أهلكها، أو أيبسها . كذلك الإيمان)

وقد تنوعت عبارات السلف في تقرير هذا الأصل، وتطابقت في المضمون :

قال الزهري : (الإيمان قول وعمل ، قرينان ، لا ينفع أحدهما إلا بالآخر)

وقال الأوزاعي : (لا يستقيم الإيمان إلا بالقول. ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل. ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة)

وقال أحمد حاكياً مذهب أهل السنة في مختلف الأقطار: (فكان قولهم: أن الإيمان قول وعمل ونية)

وقال البخاري: (لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص)

واشتد نكيرهم على المرجئة الذين أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان، على اختلاف طبقاتهم : قال النخعي : (إياكم وأهل هذا الرأي المحدث) يعني الإرجاء. وقال : (الإرجاء بدعة) وقال : (لفتنتهم عندي أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة) يعني الخوارج. وقال : (تركوا هذا الدين أرق من الثوب السابري)وقال سعيد بن جبير : (المرجئة يهود القبلة). وقال : (المرجئة مثل الصابئين) وقال الزهري (ما ابتدعت في الإسلام بدعة هي أضر على أهله من هذه) يعني الإرجاء.

وقال الأوزاعي : (كان يحي وقتادة يقولان : ليس من أهل الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء) وما ذاك إلا لأن هذه البدعة الخبيثة تجرد الاعتقاد من لازمه ومقتضاه، وتحيله إلى لون من المعرفة المجردة التي لا تتحقق بها عبودية لله رب العالمين .

وقد كشف شيخ الإسلام ابن تيمية عن سر هذا التلازم الحميم بين القول والعمل، والاعتقاد والسلوك، فقال : (فالإيمان لا بد فيه من هذين الأصلين : التصديق بالحق، والمحبة له ؛ فهذا أصل القول، وهذا أصل العمل. ثم الحب التام مع القدرة، يستلزم حركة

البدن بالقول الظاهر، والعمل الظاهر، ضرورة) شرح حديث جبريل:٤٢٧

وتأسيساً على ما سبق فالإيمان، كما يراه أهل السنة والجماعة: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان . وهو بهذا الشمول يتناول جميع مناحي الحياة، ويحيل رحلة العمر إلى عبادة مستمرة تباركه وتزكيه. قال تعالى : (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)سورة الأنعام ١٦٢/٦

العقيدة والسلوك

(السلوك) مصطلح ولد، وترعرع في أحضان العبَّاد، والزهاد، وأرباب الطرق الصوفية، على تفاوت كبير في دلالته، وتطبيقه عندهم، كتفاوتهم في القرب من السنة المحضة، أو البعد منها. وليس مصطلحاً شرعياً خاصاً. ودلالته لا تتجاوز الدلالة اللغوية، التي بمعنى السير على طريقة معينة، كما يسير السالك في الدرب المعين، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ)

رواه أبو داود، الترمذي، وابن ماجة.

والسلوك الشخصي، عبادةً، ومعاملةً، هو الترجمان الصادق لعقيدة المرء، والأثر العملي الناتج عن المخزون العلمي الإيماني. وقد اختطف الصوفية هذا الجانب المنظور من حياة الأفراد، فرتبوا له المقامات، ووصَّفوا الأحوال، وزخرفوا العبارات، ورسموا الطرق، وصاغوا الأوراد، وتوَّجوا ذلك بالبيعة والانتماء لصاحب الطريقة، فآلت العامة إلى شيعٍ، وأحزاب، وانخرط الأفراد في اتباع رسوم بدعية، ذات نفس أعجمي، وتأثير سلبي، منسحبٍ من الحياة، غارقٍ في التهويمات، والإشارات.

حرر في : ١ / ٢ / ١٤٢٨ هـ

والسلوك الشرعي؛ القرآني، النبوي، السلفي، هو الاستشعار الدائم للعبودية لرب العالمين: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) متفق عليه، واستصحاب معيته سبحانه، في جميع التقلبات : (إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت) رواه الطبراني، والبهقي، وأبو نعيم. هذا من الناحية العلمية الوجدانية، وأما من الناحية العملية التطبيقية، فهو اتباع هدي خاتم النبيين؛ في الأقوال والأعمال، والأخلاق، والأحوال: (فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) رواه مسلم.

اقتبس المقريزي، رحمه الله، في كتابه (تجريد التوحيد المفيد) تصنيفاً لأهل مقام (إياك نعبد) من (مدارج السالكين، لابن القيم، رحمه الله، جعلهم أربعة أصناف :

(الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات، وأفضلها : أشقها على النفوس، وأصعبها...

الصنف الثاني : قالوا: أفضل العبادات، وأنفعها : التجرد، والتزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث لما هو منها ...

الصنف الثالث :رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالجاه، والمال، والنفع، أفضل ...

الصنف الرابع : قالوا : أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب، سبحانه، وإشغال كل وقت بما هو من مقتضى ذلك الوقت، ووظيفته :

- فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد ...
- والأفضل في وقت حضور الضيف : القيام بحقه، والاشتغال به .
- والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والذكر، والدعاء.
- والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد، والاشتغال بإجابة المؤذن
- والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد، والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى المسجد، وإن بعد.
- والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته بالجاه، والمال، والبدن
- والأفضل في السفر : مساعدة المحتاج، وإعانة الرفقة، وإيثار ذلك على الأوراد،

والخلوة.

- والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب، والهمة على تدبره، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعية من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

- والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع، والدعاء والذكر .

- والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير، والتهليل، والتحميد، وهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

- والأفضل في العشر الأواخر من رمضان : لزوم المساجد، والخلوة فيها، مع الاعتكاف، والإعراض عن مخالطة الناس، والاشتغال بهم حتى أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن...

- والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك، وجمعيتك.

- والأفضل في وقت نزول النوازل، وأذى الناس لك: أداء واجب الصبر، مع خلطتك لهم..

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف التي قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلق به من العبادة، وفارقه، يرى نفسه كأنه قد نقص، ونزل عن عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه مرضات الله تعالى. إن رأيت العلماء، رأيته معهم، وكذلك الذاكرين، والمتصدقين، وأرباب الجمعية، وعكوف القلب على الله. فهذا هو الغذاء الجامع للسائر إلى الله في كل طريق، والوافد عليه مع كل فريق) تجريد التوحيد المفيد : ٩٢-١٠٠. دار عالم الفوائد

وبعد : فهذا هو السلوك الحق الذي تمليه العقيدة الحقة؛ أن يعيش الإنسان لحظته الراهنة، مستيقناً، مستحضراً، العبودية التامة لله رب العالمين، متمثلاً، متأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم، في كل ما يأتي، وما يذر، مطَّرحاً الأحوال الشيطانية، والرسوم البدعية، مستغرقاً في جميع مناحي الحياة؛ أباً، وزوجاً، راعياً، ومرعياً، في العبادات، والمعاملات، في الأخلاق، والآداب، وفي سائر شؤون الحياة.

العقيدة والسياسة

إن المدرك لحقيقة (العقيدة الإسلامية) ، لا يرتاب في شموليتها، وتناولها لمختلف جوانب الحياة. ومن ذلك ما اصطلح الناس، في الأزمنة الأخيرة، على تسميته (سياسة) ويقصد بها جملة الأسس والمفاهيم التي تبنى عليها المواقف في العلاقات الدولية.

وبعض الناس، لا يرى علاقةً بين (الدين) و (السياسة)، نتيجةً للفهم القاصر لدور الدين في الحياة، وحسبانه (ممارسة شخصية) أو بصورة أوسع (منظومةً اجتماعية)، لكن يستبعدون أن يقوم الدين بتوجيه دفة الدولة، في علاقاتها الدولية، ومواقفها العامة. وربما تحذلق بعضهم فقال: الدين رمز القداسة والنزاهة، والسياسة دجل ووساخة، فلا يصلح أن يدخل هذا في هذا! وهو كلام لا يحتاج إلى تعليق، فإنما جاء الدين ليصلح الدنيا، لا ليتفرج عليها، ويستنكف عنها.

إن الإسلام دين ودولة، يجتمع فيه القرآن والسلطان، فيتفيؤ الناس ظلال العدل والرحمة معاً، فيصلح الدين والدنيا معاً. والمثال الباهر، والتطبيق العملي الدقيق لهذه القضية، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وبناؤه للدولة الإسلامية الأولى. ويأتي في الدرجة

حرر في: ٣/ ٢/ ١٤٣٠هـ

الثانية عهد الخلافة الراشدة، ثم ما أعقبها من أدوار الخلافة الإسلامية المتعاقبة، التي تتفاوت قرباً، وبعداً من خلافة النبوة.

وللسياسة في الدين متعلقان:

أحدهما: باب الثوابت العقدية: وهي جملة القضايا الإيمانية التي تحدد علاقة المسلمين بغيرهم من المعاهدين، والمستأمنين، والذميين، والحربيين، من الناحية العقدية، وما تستتبع من الولاء، والبراء، والحب، والبغضاء. وهذا الباب لا يجوز لأحد تجاوزه، والمساس بثوابته، تحت أي دعوى.

الثاني: باب المصالح والمفاسد، أو ما يسمى (السياسة الشرعية): ويقصد بها المواجهة الآنية، أو المحلية، لموقف معين؛ من حيث الصلح، والهدنة، أو الحرب، والجزية، وسائر المفاوضات، والاتفاقات المعيشية، التي لا تمس جناب العقيدة، وثقافة الأمة، وآدابها، وصبغتها التي صبغها الله بها، وإنما تفرضها طبيعة الاحتكاك، والتعايش بين بني البشر. وهذا الباب، بخلاف سابقه، تتنوع فيه الاجتهادات، بتنوع الأحوال، وواقع الأمة قوةً، وضعفاً. ويقدر المصلحة والمفسدة في هذا الباب أولو الأمر، وأهل الحل والعقد، من النخب المؤهلة المصطفاة من الأمة.

وكلا النوعين جريا في عهد النبوة، والخلافة الراشدة، والممالك الإسلامية اللاحقة. فالولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين قضية عقدية محسومة بالنصوص القطعية، لا تتغير بتغير الزمان والمكان. والقتال، والصلح، يخضعان لحال الأمة في وضع معين؛ ففي حين يقال للمؤمنين: (كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) النساء/٧٧، وفي حين آخر يقال لهم: (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) التوبة/٥، وفي حال ثالثة، يعرض النبي صلى الله عليه وسلم على المؤمنين أن يبذلوا للأحزاب نصف ثمرة المدينة، ليرجعوا عنهم! دون أن يكون هذا الأسلوب في المواجهة قادحاً في الثوابت العقدية. فتأمل!

وهذان النوعان لا يلتبسان، ولا يتعارضان. فعلى سبيل المثال: البراءة من الكافرين، وعداوتهم، وبغضهم، متعلقة بباب الثوابت العقدية، كما قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) الممتحنة/٤، لكن

الموقف الإجرائي، العملي، متعلق بباب السياسة الشرعية، واختلاف الأحوال؛ فبعد هذه الآية السابقة الحاسمة، بآيتين، تأتي آيتان تعالجان وضعين مختلفين، بما يليق بهما : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) الممتحنة/٨، ٩

وهكذا تتمكن الأمة المسلمة من شق طريقها بين الأمم، محافظةً على ثوابتها، ومعتقداتها، دون أن تتعارض (العقيدة) و (السياسة) ، بل تتواءمان.

العقيدة والكون

آفاق العقيدة

قد يتصور بعض الناس أن مصطلح (عقيدة) يوحي بنوع من التحجر، والجمود، والصرامة، كما يعطيه هذا المصطلح في الأدبيات الغربية (الدوغمائية)، وريثة الثقافات النصرانية، واليهودية، والإغريقية. والحق أن الأمر مختلف جداً؛ فالعقيدة الإسلامية أفق رحب، بل آفاق، تتسم بالشمول والسعة، والتنوع، والتوازن، والمعقولية، إلى جانب الجزم، واليقين، الذي تمنحه اللفظة من الناحية اللغوية.

وأرحب هذه الآفاق، وأحكمها، أفق النص! أعني نصوص الوحيين؛ الكتاب والسنة إذ هما الإطار العام الذي يستوعب جميع الآفاق، والساح الفساح التي تنداح فيها سائر الأنظار. قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) النحل: ٨٩، وقال: (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا) الإسراء: ١٢، فالنص المعصوم يمثل الحق المحض، والبيان التفصيلي المقنع والمريح الذي ينتظم الدنيا والآخرة.

حرر في: ٢٨/ ١٠/ ١٤٢٨ هـ

ولئن كانت النصوص تمثل (الكتاب المقروء) فإن الكون برمته يمثل (الكتاب المفتوح) الذي تستقي منه العقيدة مواردها، والمادة الخام التي تقيم منه بناءها . وهذا ما يسمى عند أهل العقيدة (الإيمان بالربوبية) أي الاعتقاد الجازم بأن الله هو الخالق ، المالك المدبر لكل ما في هذا الكون ، ويدعون إلى توحيده بذلك (توحيد الربوبية) ويعرفونه بشكل مختصر، بأنه توحيد الله بأفعاله؛ أي اعتقاد انفراده بالخلق، والملك، والتدبير .

ويجد التالي لكتاب الله حصةً وافرة، وقسطاً كبيراً من الآيات تبرز هذا المعنى بأساليب تأخذ بالألباب، وتدهش العقول، وتؤسس للنتيجة المنطقية، والحقيقة الحتمية التي بعث بها الرسل، وهي (توحيد الألوهية) أو (توحيد العبادة) كقول الله تعالى : (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) النمل: ٥٩-٦٤

فحين يسرح الطرف، ويسيح العقل، في هذه الآفاق الكونية، والمجالي الحيوية، لا بد أن يذعن للحقيقة الكبرى، ويميط اللثام عن فطرته الأولى، وينادي بأعلى صوته: (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ.إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) يس: ٢٢-٢٥. وبالتالي فإن كل ما في هذا الكون مدد لهذه العقيدة، وغذاء مستمر لمعتنقها، يجد فيها السلاسة، والانسجام بين ما يقرأ، وبين ما يرى في الكتابين .

وحين أطل العلم الحديث، وتحديداً العلوم التطبيقية ؛ الجغرافيا، والفلك،

والطب، والفيزياء،وعلم وظائف الأعضاء، بمكتشفاته، ومخترعاته، رأى فيه كهنة الكنيسة منافساً خطيراً، وخصماً يهدد بتقويض البنية التحتية لمنظومة الترهات التي ألبست لبوس الدين، فناصبوه العداء . بينما وجد فيه أهل الإيمان الحق، والعقيدة الصافية فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً لقضية الإيمان الكبرى، فطفقوا يمتحون من نبعه المتجدد، ويطلقون البصر والبصيرة في آفاقه الرحبة الثرة ، وطفق الناس يعون، ويتفكرون، ويتدبرون، فمن سبقت له من الله الحسنى ، قيض له من يضع النقاط على الحروف، ويرتب النتائج على المقدمات، وإلا بقوا فاغري الأفواه .

وهج الصيف

من المفارقات الأساسية بين المؤمن والغافل، أن المؤمن يبصر بنور الله، ويهتدي بوحي الله، ويتحسس ما حوله بأنامل الحكمة، فيعود ذلك كله مدداً لإيمانه، وغذاءً لروحه. بخلاف الغافل، بليد المشاعر، غليظ الطباع، فإنه قد جعل بينه وبين آيات الله، ودلائل ربوبيته حجاباً صفيقاً، وابتنى دونها سداً منيعاً، فتعطلت مداركه، وجفت منابعه. قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون) الأعراف : ١٧٩

ومن حكمة الله البالغة أن جعل هذا الكون متنوعاً، متغيراً، ولم يجعله جامداً سرمداً! فيحدث ذلك للمؤمن مشاعر متجددة، وعبوديات متنوعة، لا تقع له حال الديمومة والاسترسال. وقد أدرك هذه الحكمة الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، قال الحسن : (كانوا يعني الصحابة يقولون : الحمد لله الرفيق، الذي لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً، لا ينصرف، لقال الشاك في الله : لو كان لهذا الخلق

حرر في : ١٣ / ٧ / ١٤٢٨ هـ

ربٌ لحادَثَه و إن الله قد حادَث بما ترون من الآيات: أنه جاء بضوء طبَّق ما بين الخافقين، وجعل فيها معاشاً، وسراجاً وهاجاً ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق، وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكناً، ونجوماً، وقمراً منيراً. وإذا شاء بنى بناءً، جعل فيه المطر، والرعد، والبرق، والصواعق، ما شاء. وإن شاء صرف ذلك الخلق. وإذا شاء جاء ببرد يقرقف الناس. وإذا شاء ذهب بذلك، وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس، ليعلم الناس أن لهذا الخلق رباً يحادثه، بما ترون من الآيات. كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة) لطائف المعارف: ١ / ٣٤٧

وفي فصل الصيف، تبدو الصورة السطحية، لآحاد الناس: حرٌ، ووهجٌ، وضيقٌ، وعرقٌ! ثم فزعٌ إلى توفير وسائل التبريد، ونزوح إلى أماكن الاصطياف. وذلك أمر تمليه الطبيعة البشرية . لكن المؤمنين ينظرون نظرة أعمق، وينقدح لهم من موحيات الإيمان، ومستنبطات العقيدة، في حلول فصل الصيف، معاني متعددة، منها :

١- التدبر العميق لبديع خلق الله، وجميل صنع الله، الذي أتقن كل شيء، فجاء على نسقٍ مطرد، ونظام متسق، وتنوع فريد منضبط !

٢- الخوف من النار ؛ بجامع الحر في الأمرين، مع بعد الفارق. ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه و سلم، قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً. فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف. فأشد ما تجدون من الحر، من سموم جهنم، و أشد ما تجدون من البرد، من زمهرير جهنم) . فيتبادر إلى ذهن المؤمن ما أوعد الله به الكافرين، والعصاة، فيحدث له موعظةً، وتضرعاً . روى عثمان الدارمي بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا كان يوم شديد الحر، فقال العبد: لا إله إلا الله، ما أشد حر هذا اليوم! اللهم أجرني من حر جهنم. قال الله لجهنم: إن عبداً من عبادي قد استجار بي منك، و قد أجرته)

٣- الصبر على طاعة الله التي تشتد في هذا الفصل : من المشي إلى الجمع والجماعات، وصوم الفرض والنفل ، ومكابدة ظمأ الهواجر، وأداء الحج والعمرة، والنفرة إلى الجهاد، واتباع الجنائز، وشهودها في المقابر، في حمئة الشمس، وغير

ذلك من أنواع العبادات. فيتراوح المؤمنون في أدائها ما بين صابر، وراضٍ، وشاكر. قال ابن رجب، رحمه الله: (خرج رجل من السلف إلى الجمعة، فوجد الناس قد سبقوه إلى الظل، فقعد في الشمس، فناداه رجل من الظل أن يدخل إليه، فأبى أن يتخطى الناس لذلك، ثم تلا: (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)

لطائف المعارف: ١/٣٤٧

هذا غيض من فيض، من تفاوت الخلق في استقبال المتغيرات، والتفكر في أسرار المحدثات، مرده إلى الاعتقاد المكنون في القلب. فمن صح قلبه، صح قوله، وعمله، وفكره، وخواطره. ومن فسد قلبه فسدت هاتيك كلها. والله المستعان.

سنريهم آياتنا

ففي غضون الأسبوع المنصرم شُغل الناس، ووسائل الإعلام ، في منطقة الخليج، بالحديث عن إعصار (قونو) ، وظل سكان المناطق الساحلية يترقبونه بأنفاس محبوسة، وقلوب بلغت الحناجر، ليصل مندفعاً في عرض البحر بسرعة تبلغ ٢٠٠كم/ساعة، ثم ينسحب مخلفاً وراءه عشرات القتلى، والمفقودين، وأضراراً مادية في المنشآت والممتلكات، تقدر بالمليارات . كل ذلك في سويعات معدودة !

وكما انشغل الناس بالحديث عن إقباله، ينشغلون بالحديث عن إدباره، وتُغرق وسائل الأنباء المستمعين والمشاهدين بالأرقام والإحصاءات، كما أغرق الإعصار مساكنهم ! ولكن ، تظل الصورة المنقولة صورة سطحية، والتحليل وصفياً ، لا ينفذ إلى العمق، ولا يقع على كبد الحقيقة .

ومن منظور (العقيدة)نسجل لـ(الحياة) الحقائق التالية :

أولاً : (إنا كل شيءٍ خلقناه بقدر) : فلا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن في هذا الكون إلا بقدر. الأحداث ليست (خبط عشواء) و لا (ضربة لازب) . ما شاء

حرر في : ٢٢ / ٥ / ١٤٢٨ هـ

الله كان، وما لم يشأ لم يكن . ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . قال صلى الله عليه وسلم : (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم .

وتأسيساً على ذلك، فلا يجوز إسناد هذه الأحداث الكونية إلى (الطبيعة) كما يفعل بعض السذج من الإعلاميين، المتأثرين بالأدبيات الغربية الملحدة، حين يصف أحدهم مثل هذه الأعاصير، والفيضانات، والبراكين، والزلازل، بأنها (غضب الطبيعة) ! ومذهب الطبائعيين، مذهب فلسفي كفري، قديم، ومدرسته باقية ، يسند المتغيرات الكونية إلى الطبيعة (Nature) ، فلا يليق بمؤمن حنيف أن يكون رجع الصدى لهذا الإلحاد .

ثانياً : أن مشيئته،سبحانه، مقترنة بحكمته؛ فكما أنه حكيم في شرعه، فهو حكيم في قدره، موصوف بالحكمة والرحمة، منزه عن العبث، والفساد، كما قال نبيه صلى الله عليه وسلم: (لبيك وسعديك، والخير بين يديك، والشر ليس إليك) رواه مسلم .

ومن حكمته سبحانه في إجراء هذه الآيات الكبار ما يلي :

١- (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) الروم: ٤١، (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) السجدة: ٢١، (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) الإسراء: ٥٩

ومن أعظم دواعي الأسى أن يحجب كثير من الناس عن تدبر هذه الحكمة النافعة، ويغيبون في معمعة مظلمة من التصورات الإلحادية المادية، التي تنزع الحدث من سياقه، وتفقده عظته وعبرته ، فلا يرعوون، ولا يستحون، بل يظلون في سكرتهم يعمهون .

٢- (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فصلت: ٥٣.
إن هذه الأقدار الكونية لتكشف عن جانب من قدرة الله الهائلة، وقوته العظيمة، وهوان الخلق عليه ! وتكشف عن عظيم حلمه على عباده؛ فهم خلقه، يعيشون في أرضه، ويأكلون من رزقه، ثم هم يعصونه ! ولو شاء لأفناهم في لمحة بصر . فكم من آيات ربوبيته، ومعاني أسمائه وصفاته، تظهر للمتأمل في هذه الأحداث، بعين البصيرة .

ثالثاً : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) إن موقف المؤمن من المصائب القدرية؛ في الأنفس، والأموال، والثمرات، الصبر، والرضا، وحسن الظن بالله، ورجاء الخلف العاجل والآجل. قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) التغابن: ١١ ، فتنقلب النقمة نعمة، والمحنة منحة ! كما في الحديث: (لا يقضي الله على المؤمن قضاءً إلا كان خيراً له) رواه مسلم ، (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له) رواه مسلم .

الحدث الكوني والسبب الشرعي

إن الله تبارك اسمه، وتعالى جَدُّه، لم يزل خلاقاً، فعالاً لما يريد، يخلق ما يشاء، ويحكم ما يريد. يرفع القسط، ويخفضه، كل يوم هو في شأن. قال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) آل عمران/٢٦، ٢٧.

وحين تقع الحوادث الكونية الكبرى، من زلازل، وبراكين، وفيضانات، وأوبئة، وكسوف، وخسوف، ينهمك الناس في تتبع الأخبار، ورصد الإحصاءات، ويستغرق المختصون في تقديم التفسيرات المادية؛ جيولوجية، أو فلكية، أو بيولوجية، ويغفل الجميع إلا من رحم الله، عن التفسير الإيماني، العقدي، لهذه الأحداث، إما بسبب:

١- لوثةٍ إلحاديةٍ، علمانية، تفصل الدين عن الدنيا، قال تعالى: (قُلِ انْظُرُوا

حرر في: ٥/ ٦/ ١٤٣٠ هـ

مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) يونس/١٠١.
ومن ثم يُقدَّم كل تفسير لشرح هذه الظاهرة، أو تلك، مهما كان مُغرباً، مستنكراً، إلا أن يكون التفسير الإيماني.

٢- غفلة مطبقة، وذهول عن سنن الله المطردة. قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) الأعراف/١٤٦.فيظلون في سكرتهم يعمهون

وعلى كلا الحالين، تمر الآيات تلو الآيات، فلا يرفعون بها رأساً، ولا يستنبطون منها درساً، ولا يرعوون. قال تعالى: (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) التوبة/١٢٦

أما المؤمن الذي ينظر بنور الله، ويبصر ما وراء الأحداث الظاهرة، فإنه يقرأ المشهد بعينين ثاقبتين:

إحداهما: عين القدر: فيعلم أن الله تعالى حكيم في قدره، كما هو حكيم في شرعه؛ فلا يكون في ملكه ما لا يريد، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته النافذة، وفق حكمته البالغة. فلا مكان لـ (خبط عشواء) ولا (ضربة لازب)، بل: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ. هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ.وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) الرعد/٨-١٣

الثانية: عين الشرع: فيدرك أنه ما نزلت بليةٌ إلا بذنب، ولا رفعت إلا بتوبة. لقد استقر في حس المؤمن الارتباط الوثيق بين الفساد في الدين، والفساد في الدنيا، قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الروم/٤١. وقال: (مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

أَيْدِيكُمْ) الشورى/٣٠. فالله تعالى، بسابق علمه، قد علم ما يكون من العباد من كفرٍ، وفسوقٍ، وعصيان، فأجرى قدره السابق في إيقاع المثُلات بهم، في أوقات معلومة، مقترنة بأسبابها الشرعية، عقوبةً لهم، ولعلهم يرجعون. أو يجريها تحذيراً، وتنبيهاً، لتوقي شر انعقدت أسبابه، كما في الكسوف، والخسوف. قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ) رواه البخاري. وحينئذ، ينتفع المؤمن بالقدر،والشرع ، فيقابل القدر بالرضا، والتسليم، والتماس الحكمة. ويقوم لله بما ينبغي من التوبة. قال تعالى: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) يونس/٩٨.

العقيدة والغيث

(الغيث) أو المطر، ظاهرة كونية، ونعمة ربانية، من مظاهر ربوبية الله، ونعمته على خلقه، ورحمته الواسعة بهم؛ مسلمِهم، وكافرِهم، برِّهم،وفاجرِهم. تتعلق به مصالحهم في أنفسهم، وبهائمهم، وزروعهم، وثمارهم.

والفرحة والبشرى تكتنفه، قبل حصوله، وبعد هطوله. وكثير من الناس يكتفي بالبهجة الفطرية، والصورة الظاهرية، لنزول الغيث، ولا يعمل فكره في استسقاء المعاني الإيمانية الكامنة وراء هذا الحدث الكوني الجميل، فيخسرون كثيراً، ويفقدون مُتَعاً هائلة ! ذلك أن (العقيدة) تستمد جزءً من مادتها من مظاهر الربوبية، والحوادث الكونية المتجددة، فلا يحتاج أصحابها إلى كبير عناء، في إنعاشها، وتجديدها، وإحياء قلوبهم بمواردها.

ومن المعاني الإيمانية المتزاحمة حيال هذا المشهد :

أولاً : الانبهار من قدرة الله التي يحصل بها إنشاء السحاب، وسوق الرياح لتلك الأطنان الثقال من المياه، وتوجيهها بحكمة بالغة، ونعمة سابغة، إلى أرضٍ قفرٍ، يباب،

لتفرغ حمولتها، وتحييها بإذن ربها. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف/٥٧، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ الفرقان/٤٨، ٤٩، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الشورى/٢٨.

لو اجتمع من بأقطارها على أن يسوقوا عشر معشار ما أنزل الله من السماء، على بقعة محدودة من الأرض، بما أوتوا من حاويات، وناقلات، وأنابيب، ما بلغوا إلى ذلك سبيلاً. فسبحان العليم، القدير، الحكيم!

وما أن ينزل ماء السماء، على الأرض العطشى، حتى تستحيل مروجاً نضرةً، وخمائل خَضرة، تبهج العين، وتسر القلب، بعد أن كانت غبراء، قاحلة. قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ الحج/٥. ويحار الطرف في هذه الألوان الزاهية، والثمار اليانعة، والروائح الزكية، كيف خرجت من هذه الصحراء البائسة، والشعاب النائية! قال الشاعر

تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيونٍ من لجين ناضرات
بأحداق هو الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ الحج/٦٣، فسبحان اللطيف الخبير!

ثانياً: الدلالة الأكيدة على إمكان البعث: يتراءى لقاصر النظر، أن هذه الأجساد حين توارى الثرى، وتتفتت، وتنحل إلى تراب، لا يمكن أن ترجع من جديد! هكذا وقر

في قلوب المشركين، منكري البعث. قال مجاهد، وعكرِمَة، وعروة بن الزبير، والسُّدِّي، وقتادة: جاء أُبي بن خلف، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي يده عظم رميم، وهو يُفَتِّتُه ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: «نعم، يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار». ونزلت هذه الآيات من آخر «يس»: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾، إلى آخرهن.

ولكن الدليل الحسي المتمثل بإحياء الأرض الميتة، حيناً بعد حين، لدليل قاهر على إمكانية البعث، وهوانه على الله تعالى. قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الروم/٥٠، وقال: ﴿مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فصلت/٣٩، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ . رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ق/٩-١١.

ثالثاً: التنبيه إلى حياة القلوب: فإذا كان الماء النازل من السماء يحيي صحراء الأرض، فإن الوحي النازل من السماء يحيي صحراء القلب! وقد نبه الله تعالى على هذا المعنى اللطيف حين عاتب عباده المؤمنين، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ . اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الحديد/١٦، ١٧.

بل إن حاجة القلب للغيث المعنوي الذي به حياته وروحه، أشد من حاجة الأرض إلى الغيث الحسي الذي به نباتها وحياتها. وحاجتنا إلى الاستسقاء لقلوبنا من العلم والإيمان، أولى من استسقائنا للضراب والآكام. مطرنا بفضل الله ورحمته.

العقيدة والإنسان

العقيدة والنفس (١)

(النفس) هي التعبير القرآني، والنبوي، واللغوي، والعرفي، عن الكينونة الإنسانية لشخص ما. فالنفس مرادفة للذات، وللإنسان. وبالتعبير الحديث هي (الوحدة) للآدميين.

فأصل الخليقة (نفس) واحدة، تناسلت منها بقية النفوس. قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) النساء/١.

و(النفس) البكر، مفطورة على الاستعداد لتقبل الخير والشر، مهيئة للمفاضلة بينهما، وركوب أحدهما. قال تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) الشمس/٧-١٠

ونظراً لهذه القابلية، وتلك القدرة، فإن (النفس) تتمظهر بأحوال ثلاث :

فتارةً تكون مطمئنة بالإيمان : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) الفجر/٢٧، ٢٨

وتارةً تكون أمارةً بالسوء : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) يوسف/٥٣

حرر في : ٩/ ٣/ ١٤٣٠ هـ

وتارةً تكون لوامة : (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) القيامة/٢

وهي تتراوح بين المراتب الثلاث، حتى تؤول محصلتها إلى ما غلب عليها، ووافت به .

ولـ(النفس) عيوبٌ، وآفات، ولها وسائل، وأدوات :

فهي ميالةٌ إلى (الهوى)، تحتاج إلى زجر : (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) النازعات/٤٠

وهي مضمار للوسوسة الذاتية: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) ق/١٦

كما أن لها أدواتها التسويغية للوصول إلى مرادها : (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) يوسف/١٨، (وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) طه/٩٦

تلك خطوط عامة، وأصول رئيسة، في حقيقة النفس، تحتها تفاصيل واسعة. ولذا انصبت عناية العلماء الربانيين، المحققين، المدققين، بفقه النفس، ومعرفة طبيعتها، وتقلباتها، والتواءاتها، ومجاهدتها، وتزكيتها. كما أن غير المسلمين؛ من الفلاسفة، والمفكرين، عنوا عنايةً كبيرة بالجوانب النفسية، حتى تكوَّن من تلك التراكمات، علم كبير، يسمى (علم النفس) .

وفرق ما بين الفريقين؛ العلماء الربانيين، والعلماء النفسيين، أن الفريق الأول يستنير بنور الله، ويعتصم بأصول الوحيين، فيصيب كبد الحقيقة، ويختصر المسافات للوصول إلى النتائج الصائبة. في حين أن الفريق الذي يعتمد على التجارب الإنسانية، والتراكمات المعرفية، يصيب جزءاً من الحقيقة، ويخفق في أجزاء لا غنى للناظر فيها، من الاستنارة بنور الله، فتأتي نتائجه قاصرة، منقوصة. ونحن لا نغمط الناس حقهم، ولا نتنكر للجهود الإنسانية القائمة على الرصد، والتحليل، والاستنتاج، لكننا نجزم أن هذا اللون من العلوم الإنسانية، ذا صلة حميمة بأصل الخلق والتكوين الإلهي للإنسان، ولا يمكن التعاطي معه بمعزل عن الثوابت العقدية، والقضايا الغيبية.

إن الأصول العقدية الثابتة، ضرورية لفهم النفس الإنسانية، كما أنها ضرورية أيضاً لتقويمها، وتسديدها، وعلاجها. قال تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) الملك/١٤ .

لقد أفلح الغرب في صياغة (علم نفس) على أصول منهجية مادية، تستبعد عنصر (الإيمان) و (الغيب)، وحاول أن يفهم (النفس) وأن يستصلحها، فنجح

في جانب، وأخفق في جوانب. وكتب أهل الإسلام ، كشيخ الإسلام، وابن القيم، وابن الجوزي، والغزالي، وغيرهم، رحمهم الله، في فقه النفس، كتابات نيرة، تستدعي من الباحثين الذين يجمعون بين المنهجية الحديثة، والحس الشرعي العقدي، أن يعيدوا إخراجها، وتطويرها. ولن يكون كافياً أن يعمد بعض المصنفين المسلمين إلى النتاج الغربي للعلوم النفسية، فيزعم أنها قام بأسلمتها، لمجرد أنه أقحم نصاً قرآنياً، أو حديثاً نبوياً، أو شاهداً شرعياً، أو ذيل تعريفات القوم بعبارة : (في حدود الشريعة الإسلامية) ! هذا ضرب من العبث، والتشويه. لا بد من تأصيل لعلم نفس إسلامي ينقذ النفوس البشرية المنهكة المريضة، لتتعافى بصدق، وتستطِبَّ بحق، بدواء القرآن، وتتغذى بغذاء الإيمان .

العقيدة والنفس (٢)

قواعد في معاملة النفس

تأسيساً على ما تقدم من توصيف النفس الإنسانية، من خلال نصوص الكتاب والسنة، فثمَّ بعض القواعد العامة في سياسة النفس، ومعاملتها. منها :

أولاً : تزكية النفس مشروع الحياة : قال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) الأعلى/١٤، وقال : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) الشمس/٩، ١٠. لابد للمرء في رحلة الحياة أن يدرك أنه في حالة مكابدة، وكدح، ومجاهدة، للرقي بنفسه إلى مراقي الكمال. والتزكية ليست حلقة نقاش، ولا دورة مكثفة، يجتازها المرء في مدة محددة، ثم يتخرج منها بامتياز، محصناً من كل آفة، كلا! بل هي مشروع مستمر، وعمل دؤوب، يرمق جانب البناء والارتقاء، ويلحظ جانب الصيانة والإصلاح. وثمرتها الهداية، في الدنيا، والآخرة. قال تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) العنكبوت/٦٩. وقد تلاعب الشيطان ببعض المتصوفة، حين أوحى إليهم أن ثمَّ حداً يبلغونه في الحياة، يسمى مقام (اليقين)، تسقط عنهم، ببلوغه، الواجبات، وتحل لهم المحرمات، أخذاً، زعموا، من قوله تعالى : (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) الحجر/٩٩ ! وإنما (اليقين) الموت، فلا يزال

حرر في : ٤/ ٤/ ١٤٣٠ هـ

المؤمن مشتغلاً بعبادة ربه، وتزكية نفسه حتى يدركه الموت، وهو على ذلك .

ثانياً : زكاة النفس بتوفيق الرب، وكسب العبد : قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ النساء/٤٩. إن معالجة النفس، وتهذيبها، وحملها على مراقي الكمال، لا يحصل بمجرد الأماني العذاب : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ النساء/١٢٣، ولا يتحقق بالاعتماد على الذات، والاعتداد بالمواهب والقدرات، بل لا بد فيه من ركنين :

أحدهما : الاستعانة بالله، وسؤاله زكاة النفس. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : (اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا) رواه مسلم، وقال في تعليمه للحصين بن معبد الخزاعي : (قُلْ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي) رواه الترمذي.

الثاني : المجاهدة، وبذل الوسع، واستفراغ الجهد : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت/٦٩. وتلك من سنن الله الكونية؛ فإن الله ربط الأسباب بمسبباتها، وعلق التغيير بالمجهود البشري، فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/١١

ثالثاً : لكل نفس وسع، فلا تتكلف : قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ البقرة/٢٨٦، وقال : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ الطلاق/٧، وقال : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ص/٨٦. إن لكل نفس وسعاً، وطاقة، تتفاوت من شخص لآخر. بل إن النفس الواحدة تتفاوت في وسعها، وطاقتها حيال الأمور المختلفة، فهاهو النبي صلى الله عليه وسلم يقيّم أبا ذر ، رضي الله عنه في موقف معين، حين قال له: أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ! إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ، وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) رواه مسلم، لكنه صلى الله عليه وسلم يسجل له شهادة قوة، وتميز ، في مقام آخر، فعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا أَقَلَّتْ الْغَبْرَاءُ وَلَا أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ) رواه أحمد. وابن ماجة.

واجتماع الكمالات عزيز، والله تعالى يقسم الأخلاق، كما يقسم الأرزاق، ويؤتي فضله من يشاء. فعلى المرء أن يرضى بما أوتي، وأن يقنع بما قسم له، وألا يتشبع بما لم يعط. قَالَ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ) متفق عليه.

والتكلف غير التحمل. الأول حمل للنفس على ما ليس في طوقها، والثاني استنفار لطاقتها القصوى. فالأول مذموم، والثاني محمود. وبينهما خيط رفيع، يبصر بالتجارب، والتقويم المنصف، لا وكس، ولا شطط.

رابعاً: النفس تعتل كما يعتل البدن، وتداوى كما يداوى البدن: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً) رواه البخاري. فكما أن العين يصيبها الرمد، والأذن يلحقها الصمم، واليد تكل، وتشل، والرأس يصيبه الصداع، فالنفس كذلك، يعتريها اضطراب. وكثير من الناس، حين تعتل نفوسهم يفزعون إلى الأسباب الغيبية؛ من عين، وسحر، وما أشبه، والعين حق، والسحر حق، لكن لا يستقيم أن تعلل بهما جميع الظاهرات البشرية، فكلما أمكن تفسير الأشياء تفسيراً ظاهرياً، مدركاً، لزم المصير إليه، ولم يسغ التعلق بأوهام وظنون، (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) يونس/٣٦.

والعلل النفسية تداوى بأضدادها: فالحزن والاكتئاب، بإدخال الفرح والسرور، ولو تكلفاً، واليأس والإحباط، بالفأل، والأمل، والكبر، والعجب، بالتواضع والإخبات. وهكذا. ولهذا نجد في القرآن الكريم هذه المناهي التربوية: (لَا تَحْزَنْ) التوبة/٤٠، (فَلَا تَبْتَئِسْ) يوسف/٦٩، (لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ) النحل/١٢٧، (وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) يوسف/٨٧

تلك نظرات تأملية في التعامل مع النفس الإنسانية. وعالم النفس أوسع من أن تحيط به عبارات، لكنها إشارات إلى ما وراءها من فقه النفس على ضوء الوحيين.

العقيدة والإنسان

الحديث عن (الإنسان) كالحديث عن النفس، أو قريباً منه. فكأن الحديث عن النفس في القرآن يُعنى ببيان الطبيعة الكامنة في الذات الإنسانية؛ من حيث كونها أمارةً، أو لوامةً، أو مطمئنة، ومن حيث إلهامها فجورها، وتقواها. في حين أن الحديث عن الإنسان يتعلق بالجوانب المسلكية المنظورة، وتنوع أدائه مع مختلف المتغيرات الحياتية. وقد وصف القرآن الكريم (جنس الإنسان) بجملة من الأوصاف السلبية. ومن ذلك :

١- الظلم، والجهل : قال تعالى : (وحملها الإنسان إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا) الأحزاب/٧٢

٢- الضعف : قال تعالى : (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) النساء/٢٨.

٣- العجلة : قال تعالى : (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولا) الإسراء/١١، وقال : (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) الأنبياء/٣٧

٤- اليأس، والقنوط : قال تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) هود/٩، وقال : (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) فصلت/٤٩، وقال : (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ

حرر في : ٢١ / ٤ / ١٤٣٠ هـ

كَانَ يَئُوسًا) الإسراء/٨٣

٥- الفرح والفخر : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) هود/١٠

٦- الكفر، والجحود : قال تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) إبراهيم/٣٤، وقال : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ) الحج/٦٦، وقال : (فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ) الشورى/٤٨، وقال : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) عبس/١٧، وقال : (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) العاديات/٦ قال ابن كثير، رحمه الله: (إنه لنعم ربه لجحود كفور. قال ابن عباس، ومجاهد وإبراهيم النَّخعي، وأبو الجوزاء، وأبو العالية، وأبو الضحى، وسعيد بن جبير، ومحمد بن قيس، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد: الكنود: الكفور. قال الحسن: هو الذي يعد المصائب، وينسى نعم ربه) تفسير ابن كثير. يوضح ذلك قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يونس/١٢، وقوله : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) الزمر/٨

٧- الخصومة والجدل : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) النحل/٤ وقال: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) الكهف/٥٤

٨- الهلع: الجزع، والمنع : قال تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا.إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا.وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) المعارج/١٩-٢١، وقال : (وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) الإسراء/١٠٠. قال ابن عباس، وقتادة : أي بخيلا منوعًا. وقال : (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) فصلت/٥١

فهذه الطائفة الكريمة من الآيات تصف الإنسان، من حيث هو إنسان، بجملة من الأوصاف الذميمة، التي ترجع إلى وصفين أساسيين :

أحدهما : الظلم : الذي ينشئ الكفر، والجحود، والخصومة، والجدل، والمنع، والتقتير. الثاني : الجهالة : الناشئة من الضعف الذي ينشئ اليأس، والقنوط، والهلع، والكنود. أو العجلة، والفرح، والفخر.

و(الإنسان) يراوح بين المضمارين، ويتردى في إحدى الهوّتين، إلا أن يتشبث بسبب من

السماء، ويستمسك بالعروة الوثقى؛ وهي (العقيدة) التي تنشطه بأذيالها، وتستنقذه من المستنقع الآسن، وتنفخ فيه من روح الإيمان ما يقابل به هذه الأوصاف الذميمة بأضدادها. قال تعالى: (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فالأصل في الجنس الإنساني الخسار والهلكة، إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة. فليس مراد الله بسرد صفات الإنسان السلبية مجرد الذم، والحط، والتأنيب، وإنما الدعوة للتزكية،والطهر والترغيب.ولأجل ذا، نجد أن الله تعالى يستثني من تلك الوصمات، بعض عباده، فيقول مثلاً: (إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) هود/١٠، ١١، وقوله: (إِلَّا الْمُصَلِّينَ.الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ. وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ.وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ. وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ.إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ.وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ.وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ.وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ.وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ.أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ) المعارج/٢٢-٣٥

فهؤلاء السعداء المكرمون، هم الذين كسروا الطوق، واستعلوا على ثقلة الطين، وحمأة الشهوة، وظلمة الشبهة، وهذبوا أنفسهم، وقلموا أظفارها، فانقادت لهم، طيعةً، مختارة لنداء الفطرة، ورجعت إلى قواعدها سالمة: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) التين/٤.
والحمد لله رب العالمين.

القلب المنوَّر

القلب مستودع العلم والإيمان، ومنبِض الحب والخوف والرجاء، ومحل نظر الرب من العبد كما جاء في الحديث : (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار بأصابعة إلى صدره) رواه مسلم وهو عنوان صلاح العبد، أو فساده؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) متفق عليه فإن كان نقياً، زكياً، سليماً، أدى وظيفته التي خلق من أجلها، وإن كان غافلاً، معرضاً، زائغاً، تعطلت وظائفه، وصار بمنزلة اليد الشلاء، والعين العمياء، والأذن الصماء. وذلك أن القلوب ثلاثة :

أحدها: قلب حي،سليم،بصير،مطمئن،مخبت،مهدي،منور، فيه مثل السراج يزهر: وهو قلب المؤمن. قال تعالى :(إلا من أتى الله بقلب سليم) الشعراء:٨٩، وقال: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) الرعد:٢٨، وقال: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) التغابن:١١

حرر في : ٥/ ٢/ ١٤٢٨ هـ

الثاني : قلب ميت، قاسٍ،منكِر،زائغ،أعمى، مظلم، مطبوع عليه : وهو قلب الكافر. قال تعالى: (وجعلنا قلوبهم قاسية) المائدة:١٣، وقال: (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) النحل:٢٢ وقال: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) الصف: ٥. وقال: (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الحج: ٤٦

الثالث: قلب مريض،مفتون، مستريب ، تمده مادتان؛ مادة إيمان، ومادة نفاق،فهو لأيهما غلب . فإذا استحكم آل إلى ما قال الله: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) البقرة:١٠، وقال: (وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) التوبة:٤٥

وقد كشف الله تمايز هذه القلوب الثلاثة عند حلول الفتن، فقال: (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) الحج: ٥٣-٥٤ ، فقلب مفتون؛ وذلك قلب المنافق، وقلب قاسٍ؛ وذلك قلب الكافر، وقلب مخبت؛ وذلك قلب المؤمن .

وكثير من الناس يعتني بصلاح الظاهر، واتباع الآثار، واقتفاء السنن، وإن دقت، وهذا حسن، ولكن لا يوازي ذلك اعتناء بالباطن، وتعاهد مستمر لإصلاح القلب، مما يفضي إلى تحول العبادات إلى ما يشبه العادات، وخلوِّه من الخشوع.

والآفات والعوائق التي يتعين على السالك إلى الله أن يطهر قلبه منها أنواع :

أحداها : الشبهات ، التي توقع في الكفر ، أو الشرك، أو الشك، أو النفاق .

الثانية : الشهوات ، التي توقع في الفسق والعصيان .

الثالثة : الغفلات ، التي توقع في الجهل والإعراض .

الرابعة : الغل والحسد : اللذان يوقعان في الظلم، والبغي،وسوء الظن .

فهذه الآفات، وآثارها، منافية للتوحيد، أو لكماله الواجب، أو المستحب، بحسب تمكنها من القلب، وتغلغلها فيه؛ فبعضها يفسده بالكلية، وبعضها يعطله جزئياً، وبعضها يشوش عليه صفاءه. وحين يعافى القلب منها يتحرك حركةً صحيحة، وينبض بتوحيد الحب، والخوف، والرجاء، والتوكل،والخشوع لله عز وجل، ثم يثمر ذلك توحيد الاتباع لنبيه صلى الله عليه وسلم، فيستوي الظاهر والباطن، ويستقيم العلم والعمل

إن هذا المشروع؛ مشروع التزكية والتربية، مشروع يستغرق العمر كله، وليس له حفل تخرج في هذه الحياة الدنيا ، لكن له ثمرات طيبة من عاجل بشرى المؤمن، وجزاء موفور عند الله في الدار الآخرة. وإن أشد الناس حاجة إلى الانخراط الواعي في هذا المشروع، أولئك الذين نصبوا أنفسهم لوراثة الأنبياء؛ من العلماء، والدعاة، والمصلحين، لتستنير قلوبهم، فتنير قلوب الآخرين . قال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) الأنعام:١٢٢

فما ظنكم برب العالمين

ففي معرض محاجة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لقومه، وجَّه إليهم هذا السؤال : (فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)سورة الصافات ٨٧، وقد ذكر في تفسيرها قولان :

أحدهما : ما ظنكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، فهو من باب التهديد والتحذير.

الثاني : أي شيء أوهمتموه حتى أشركتم به غيره، فهو من التعجب والاستنكار. (انظر تفسير القرطبي : ١٥-٩٢) ولا تعارض بين المعنيين ، إلا إن الثاني أنسب للمقام؛ فقد سبقه قوله : (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦))سورة الصافات ٨٤-٨٦ ، فصاحب القلب السليم ، المعمور بحسن الظن بمعمبوده،يقضي عجباً من المشركين، المتخذين إفكاً دون الله، ويسائلهم بإنكار : ما معتقدكم بالله رب العالمين، الذي توهمتموه، حتى أوقعكم في الشرك ؟!

حرر في : ٤/ ٣/ ١٤٢٨ هـ

إن ظن العبد بربه ، وما ينطوي عليه قلبه تجاه خالقه، من صواب أو خطأ ، أو حسن أو قبح ، هو أساس دينه، وباعث أقواله، وأفعاله ، وعنوان حياته ومماته. والظن هاهنا يعني ما يقوم في القلب من المعارف التي يعتقدها صاحبها صواباً، وقد تكون كذلك، وقد لا تكون . فمن الأول، قوله: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ سورة البقرة ٤٦ ، وقوله: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ سورة القيامة ٢٨ . ومن الثاني، قوله : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ سورة آل عمران ١٥٤، وقوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ سورة الحشر ٢

فالكافر يسيء الظن بربه؛ في :

١- ذاته، وأسمائه، وصفاته : قال تعالى: ﴿ وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ سورة الأعراف ١٨٠

٢- قدره : قال عن المنافقين : ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾ سورة الفتح ٦

٣- شرعه، وخبره : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ سورة النحل ٢٤

فيحمله ذلك الظن على الكفر بالله ، ومعصية رسله ، وتكذيب كتبه . قال تعالى عن فرعون وقومه : ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾ سورة القصص ٣٩.. فما ذا كانت نتيجة هذه الظنون الفاسدة ؟ قال تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ سورة فصلت ٢٣

والمؤمن يحسن الظن بربه في :

١- ذاته، وأسمائه، وصفاته، فيعتقد أن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ سورة الشورى ١١ ، وأن ﴿ لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ سورة الروم ٢٧ ، وأن ﴿ لِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ سورة الأعراف ١٨٠

٢- قدره وتدبيره : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ سورة البقرة ١٥٧

٣- شرعه : قال تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ

أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)سورة النحل ٣٠،
وقال :(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)سورة النور ٥١

وثمرة هذا الظن الحسن ، المختزن في القلب، المستدعى عند كل نازلة، أنس بالله، وثقة بوعده، وبصيرة ترى بنوره، وخاتمة حسنة، تليق بذلك الظن الحسن .

العقيدة والأخلاق (١)

(الخُلُق) هو الصورة الباطنة للإنسان ، كما أن (الخَلْق) هو صورته الظاهرة. والأخلاق هي مجموع الهيئة الشخصية، والصفات النوعية لدى إنسانٍ ما، تمثل (مزاجاً) وتنتج (سلوكاً) يميزه عن سائر الآدميين، كما يتميز بلونه، وطوله، وسائر صفاته العضوية. والناس يبصرون من المرء أخلاقه، ويقومونه مدحاً، وذماً، وينفعلون تجاهه حباً، وبغضاً، من خلال أخلاقه غالباً .

والأخلاق نوعان :

أحدها : جِبِلِّيٌّ، طبعي، تحمله المورِّثات (الجينات) كما تحمل الصفات الوراثية العضوية، من أسلافه المتقدمين، فمنها ما يكون (سائداً) ومنها ما يكون (متنحياً)،كما قال صلى الله عليه وسلم في الذي ولدت امرأته غلاماً أسود : (عسى أن يكون نزعه عرق) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه . وعليه قول النبي صلى الله عليه وسلم ، لأشج عبد القيس: « إن فيك لخلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » فقال : أخلقين تخلقت بهما ؟ أم خلقين جبلت عليهما ؟ فقال : « بل خلقان جبلت عليهما » فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين

حرر في : ٢٨ / ٦ / ١٤٢٨ هـ

يحبهما الله تعالى) رواه مسلم ، وأبو داود .

الثاني : كسبي، مستفاد من الوالدين، والمجتمع، والرياضة، والعقل ، وسائر المؤثرات الخارجية . ويعبر عنه المثال النبوي البديع : « مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » . متفق عليه.

وكلا النوعين ينقسم إلى محمود، ومذموم . فآلت الأخلاق إلى أربعة أنواع .

وبين (العقيدة) و (الأخلاق) ارتباط وثيق ، وتأثير عميق . فالعقيدة أنفع غذاء، وأنفذ دواء، يصل إلى بؤرة النفس، وسويداء القلب ، فيحدث فيها من التعديلات والإصلاحات ما لا تستطيعه كافة المؤثرات الأخرى .

ويتمثل تأثير العقيدة في البناء الخلقي للمؤمن في جانبين :

أحدهما : تحويل الأخلاق الجبلية، والكسبية الكريمة من مجرد كونها (محمدة)، و(كمالاً إنسانياً) إلى (عبادة) و (قربة) و (احتساب) و(مجاهدة)، فتصبح (الشجاعة) (جهاداً في سبيل الله) لا (رياءً، وسمعة) ، و (الكرم) (زكاةً، وبراً، وصلةً) لا (مباهاةً وإسرافاً) وهكذا . فيحصل للمؤمن ثواب الدنيا والآخرة .

الثاني : تهذيب الأخلاق الجبلية، والكسبية السيئة، وتركها، طاعةً لله، وطمعاً في ثوابه، وخوفاً من عقابه ، وتعظيم حقوقه، وحقوق عباده .

لا شيء يمكن أن يقوم مقام (العقيدة) الحية، النابضة، في تعزيز القيم الخلقية الكريمة، وحفزها، وتصويبها ، ولا في إقصاء الأخلاق الرذيلة، وكبتها، ومدافعتها . والمؤمن الموفق هو الذي يتمكن من استنباط الدوافع العقدية العميقة في مشروع التربية الخلقية، وتوظيفها لبلوغ الكمال الإنساني المقدر .

إن نظرة واعية في سير النبلاء من السابقين واللاحقين، لتكشف عن الأثر الهائل، والنقلة الواسعة ، لأفراد سمت نفوسهم ، وعلت أخلاقهم من حضيض الدناءات إلى أعلى الدرجات، بعد أن خالطتها بهجة الإيمان، وصحة الاعتقاد . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

العقيدة والأخلاق (٢)

يمكن أن نبصر ثلاث طرق لتأثير العقيدة على الهيئة الخلقية المسلكية للإنسان :

الأولى : إصلاح القلب : وهو البؤرة التي تنطلق منها انفعالات الحي . فما أن تخالط بشاشة الإيمان شغاف القلب حتى يستحيل خلقاً جديداً، وتعاد صياغة القيم، والمبادئ، والقناعات، وفق العقيدة الجديدة، فترق النفس، وتتهذب الطباع، بصورة عجيبة، سريعة، جذرية، تدهش المراقبين ! وشواهد ذلك في قصص إسلام الصحابة الكرام، وحوادث اهتداء المجرمين العتاة، أشهر من أن تذكر .

وهذا المسلك هو الذي تنتهجه أساليب الطب النفسي الحديث؛ في تغيير طرائق التفكير، وإعادة ترتيب القناعات، لدى المرضى، وتدندن حوله تقنيات البرمجة العصبية، ودورات تطوير الذات، لكنها لا تستقوي إلا بالعقل المجرد، فلا تحقق إلا قدراً محدوداً من النجاح، بينما يفعل الإيمان فعله العجيب في النفوس، فينفذ إلى (البؤرة) و (السويداء) فيعيد (البرمجة) وفق معايير كريمة، زاكية .

حرر في : ٦/ ٧/ ١٤٢٨ هـ

قال تعالى: (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) آل عمران: ١٦٤

الثانية : المجاهدة : وهي عملية مستمرة للاستقامة على قانون الإيمان، وحمل النفس الجموح على لزوم الجادة بأنواع المؤثرات الإيمانية . وهي آلية مؤثرة، بلا ريب، كما قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) العنكبوت : ٦٩. فالرياضة والتهذيب، والمراقبة، والمراجعة، والمحاسبة، والتوبة، تثمر ترقياً في الأداء، واستقامة . خلافاً لدعاة التثبيط، وأسرى العادات، والبطَّالين، الذين يحيلون تغير الطباع والأخلاق بجبرية مقيته، واستسلام مهين ، يهدم مشروع التربية .

والواقع المحسوس يدل على أن الدربة، والتمرين، تؤثر في البهائم العجماوات؛ فتذللها، وتعسفها، وتحملها على أنماط منظمة في الحركة والأداء، فكيف بالحيوان الناطق، العاقل، المكلف ؟!

والواقع المحسوس يدل على تحول شخصيات، فظَّة، غليظة، غضوبة، إلى شخصيات رقيقة، رحيمة، حليمة . وكم من جبان طبعاً، استعذب الشهادة في سبيل الله شرعاً ! وكم من بخيل طبعاً، أرخص الغالي والنفيس ابتغاء الله والدار الآخرة!

الثالثة : الدعاء : حين يجد المؤمن نفسه في صراع مرير مع خلق سيءٍ متأصل، يقعد به، ويؤثمه ، ويخدش مروءته، ثم لا يجدي فيه مجاهدة، أو يمل من معاناتها، يرفع أكف الضراعة إلى مقلب القلوب، ومغير الأحوال ، داعياً بما دعا به رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ : (وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ) رواه مسلم .

وهذه الطرائق الثلاث، متصاحبة، متلازمة، تفضي بصاحبها إلى درجات

عالية؛ من زكاة النفس، ورقة الطبع، وعلو الهمة، وطيب المزاج . ويتربع على سدة هذا السلم السامق معلم الناس الخير، وأسوة المؤمنين، محمد صلى الله عليه وسلم الذي وصفه ربه وزكاه بقوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم : ٤. قالت عائشة رضي الله عنها : (كان خلقه القرآن ؛ يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه) رواه مسلم .

العقيدة والقول

لـ (القول) أهمية كبرى في الحياة البشرية؛ به يتعايش الناس، وتبرم العقود على اختلاف أنواعها، بإيجاب، وقبول، وبه يُعربون عن خبايا نفوسهم، ومكنونات ضمائرهم، وبه تميز جنس الإنسان عن سائر العجماوات، بالبيان . قال تعالى : (الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) الرحمن/١-٤

ولا نقصد في هذا المقام قول القلب، وما ينطوي عليه من يقينيات قطعية، وعلوم غيبية، فتلك هي (العقيدة) . وإنما أردنا قول اللسان، المعبِّر عمَّا في الجنان. فاللسان أداة طيعة، سلسة، تحيل المعاني إلى ألفاظ معقولة، تعطي قائلها صفةً اعتباريةً معينة، بحسب ما صدر عنه، طوعاً، واختياراً، بقطع النظر عن مطابقته لما في القلب .

ولمَّا كان لقول اللسان هذه الخطورة الاعتبارية، تعلقت به الأحكام الإجرائية، وصار عنواناً لصاحبه، وتصنيفاً لحالته، يلحقه بفئة دون فئة. ولم يكتف الشارع من المؤمنين أن يهمهموا بإيمانهم في خلجات الصدور، أو يتمتموا به بأطراف الشفاه، بل أمرهم بالجهر به، وجعل (قول اللسان) ركناً من أركان الإيمان . قال تعالى : (قُولُوا

حرر في : ٢/ ١١/ ١٤٢٩ هـ

آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) البقرة/١٣٦ ، وقال : (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) آل عمران/٦٤ ، وقال نبيه صلى الله عليه وسلم : (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ) متفق عليه.

وبين (قول القلب) و (قول اللسان) علاقة تبادلية؛ فكما أن التلفظ بالشهادة شرط الإيمان، وكما أن التعبد بالأعمال اللسانية؛ من ذكر، ودعاء، وتلاوة، وتعليم، داخل في مسمى الإيمان، يزيد الإيمان بزيادته، وينقص بنقصانه، فإن للإيمان القلبي أثر عجيب في تهذيب المنطق، وعفة اللسان، وانتقاء الألفاظ. ويلمس المتأمل في أحوال المهتدين هذا الأثر جلياً! حتى إن الفظ، الغليظ، الجافي، ينقلب إنساناً رقيق العبارة، حلو المنطق، مرهف الإحساس، ينتقي من الكلام أحسنه، كما ينتقي آكل التمر أطايبه. وسر ذلك، وتكييفه، أن القلب المؤمن يمتلئ بالمعاني الكريمة، والصور الجميلة، المستمدة من خصال الإيمان، وينابيع الإحسان، فيفيض ذلك على اللسان، وقد قيل (كل إناء بما فيه ينضح) .

ولما كان القول الحسن (مغناطيس القلوب) ومفتاحها، أخذ الله به العهد على بني إسرائيل ضمن طائفة من أمهات العقائد والأخلاق، فقال : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) البقرة/٨٣

ولما كانت هذه الأمة خير الأمم ترقَّى بها درجة في التفضيل، فأمر عباده أن لا يقتصروا على القول (الحسن)، بل القول (الأحسن)، لقطع الطريق على الشيطان، فقال : (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) الإسراء/٥٣، ودلَّ أمهات المؤمنين، على جلالة قدرهن، إلى أدب رفيع يحسم مادة الشر، وتسلل الهوى، فقال : (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) الأحزاب/٣٢

ولما كان مقام الدعوة يعتمد على الرفق، واللين، أمر الله عبديه موسى، وهارون، عليهما السلام، به، حين ندبهما لدعوة فرعون: فقال : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ

أَوْ يَخْشَى) طه/٤٤. وقد جعل الله تعالى الخطاب الدعوي أحسن الأقوال، فقال: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فصلت/٣٣

بل إن القول المعروف، الميسور ، يقوم مقام العطية، ويجبر النفوس التواقة إلى المتاع الحسي، غير المتاح. قال تعالى: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) النساء/٥، وقال: (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) النساء/٨، وقال : (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا) الإسراء/٢٨ . قال ابن كثير ،رحمه الله: (أي: وإذا سألك أقاربك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا) أي: عِدهم وعدًا بسهولة، ولين؛ إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسر قوله (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا) بالوعد: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغير واحد) تفسير القرآن العظيم.

وبالجملة، فإن القول السديد ،مع تقوى الله، مفتاح كل خير، وصلاح كل أمر، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب/٧٠، ٧١

كل ذلك يدعو إلى مزيد تأمل في العلاقة الوثيقة بين العقيدة والقول.والله الموفق.

فقه البدايات

لا يزال ابن آدم يمتطي ظهر الجديدين ؛ الليل والنهار . يحملانه إلى كل جديد ، ويوردانه الصفو والكدر ، حتى ينزلاه قبره ، فيخلو بما جمع ؛ من خير أو شر ، قال تعالى : (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) آل عمران:٣٠ . وكل الناس يغدو ؛ فبائع نفسه ، فمعتقها ، أو موبقها . وهو بين مخافتين ؛ أمس قد ذهب، لا يدري ما الله صانع فيه ، وغدٍ قد أقبل ، لا يدري ما الله قاضٍ فيه . والموفق من وفقه الله ، والسعيد من سبقت له من الله الحسنى .

لكل جديد لذة ، ونشوة ، وابن آدم حارث ، وهمام ، يشب ويشب معه أمله . ونفسه اللوامة تسعى بين علمين ، فتارةً تكون أمَّارة ، وتارة تصبح مطمئنة . وهو ينمى لأيتهما غلب ، والأعمال بالخواتيم .

وحين يستقبل المرء جديداً، ويستشرف أفقاً بعيداً، ويرود أرضاً بكراً، يحتاج إلى زاد، وعتاد ، يقطع به الرحلة ، ويستعين به على النقلة .

حرر في : ١٤ / ٦ / ١٤٢٨ هـ

ولا بد له من ثلاثة أمور :

أحدها : نية نقية ، لا عفن فيها ، صافية ، لا كدر فيها ، تبارك العمل وتزكيه ، وتحيل العادة عبادة ، تخلِّص صاحبها من ملاحظة الأقران ، ويستوي عند مستصحبها المدح والقدح؛ أولى درجاتها مصحِّحة ، وما بعدها مقرِّبة ، في سلَّم صاعد إلى مراقي الكمال، في ذروته الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا . ودونهم أطباق ممن خلطوا عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً ، وهم ما بين صاعد وهابط ، قد علم كل أناس مشربهم .

والنية نيتان ؛ نية تتعلق بالمعمول له ، و نية تتعلق بذات العمل. فالأولى يحصل بها التمييز بين الإخلاص والرياء ، وعليها مدار شهادة لا إله إلا الله . وفيها كلام الواعظين ، والعلماء الربانيين .والثانية يقع بها التمييز بين العبادات والعادات ، وبين أنواع العبادات ، وكيفياتها ، وعليها مدار شهادة أن محمداً رسول الله ، وهي المرادة في كلام الفقهاء غالباً .

ولا بد للمؤمن من تعاهد نيته ، وتقويتها ، وإذكائها ، وتصفيتها من الشوائب، والعوالق ، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة . وأن يختار لذلك الأوقات الملائمة التي يستجمع فيها همته ، وعقله ، وصفاءه ، ليفتش ، ويفحص ، ويدقق .

الثانية : تخطيط صائب ، مبني عل مقدمات صحيحة ، ومعرفة تامة بالقدرات، والإمكانات ، الذاتية ، والاجتماعية ، لا إفراط فيه ، ولا تفريط . فلا يحمل المؤمن نفسه ما لا يطيق ، فينوء بالحمل ويقف ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى . كما لا يضيع الفرص ، ويهدر الأوقات دون طائل ، فيطوى بساط العمر ، والقلب غافل .

وينبغي للموفق أن يستشير من يظن به خيراً ، أو يعلم له تجربةً وسبقاً ، ليستنير برأيه ، ويستفيد من تجربته . ثم يتناول قلما وورقةً ، ويرسم خطةً زمنية لتوزيع الأعمال على الأوقات ، بعدل وإنصاف .

الثالثة : عزيمة ماضية ، وهمة عالية ، لا يعتريها تردد أو فتور ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (إذا كنز الناس الذهب والفضة ، فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ...الحديث) وقال : (المؤمن

القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير. استعن بالله، ولا تعجز...الحديث) فعليه أن يحذر من انحلال العزم بكثرة الالتفات، وليكن أخا ثبات، لا صاحب هبات .

وقد قيل :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأي أن تترددا

هذا ، وإن من أسباب الثبات : الدعاء ، ودوام الذكرى ، وصحبة الخير التي تعين على البر والتقوى ، وإدمان النظر في سير النبلاء ، وما يجنونه في الآخرة والأولى.

اللهم أعنا على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك، ولا تكلنا إلى أنفسنا، ولا إلى أحد من خلقك فنهلك، وكلنا إليك وحدك، فإنك نعم المولى، ونعم الوكيل .

العقيدة والثبات

لعل لفظ (العقيدة) بحد ذاته، يدل على الثبات والاستمساك؛ إذ هو مأخوذ من عقد الحبل. والعقد هو الشد، والحزم، فلأجل ذا عُبِّر به عن العلوم القطعية، والمدارك اليقينية. وأما (الثبات) فهو وصف محمود، يدل على الاستقرار، والدوام، والتمسك بالحق، وعدم التردد والتبديل. وهو يخالف (الجمود) و (التعصب) المقترنان بالباطل.

وربما حصل الثبات بأسباب متنوعة، يرجع بعضها إلى الطبيعة البشرية، وبعضها إلى البيئة والمؤثرات الخارجية، إلا إن أعظم أسباب الثبات ما كان متصلاً بالحالة القلبية، والقناعة العقلية، وهما ما تثمره العقيدة الحقة في قلوب، وعقول معتنقيها من الطمأنينة النفسية، والاطراد الذهني، والسلامة من التردد، والأوهام .

ونلحظ الصلة الوثيقة بين القضيتين في أبلغ تعبير، حين يشبه المؤمن الموحد، بالمستمسك بالعروة الوثقى، كما في قول الله تعالى : (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا) البقرة/٢٥٦ قال ابن كثير، رحمه الله:

حرر في : ٤/ ٧/ ١٤٣٠ هـ

(أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم، فهي في نفسها محكمة، مبرمة، قوية، وربطها قوي شديد. ولهذا قال: (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .قال مجاهد: (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)يعني: الإيمان. وقال السدي: هو الإسلام.وقال سعيد بن جبير، والضحاك: يعني لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: (بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى): القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله، والبغض في الله. وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها) ، ومثله قوله تعالى : (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) لقمان/٢٢

وقد أثنى الله على فتية في الأولين، ربط على قلوبهم، ورزقهم الثبات، بسبب اعتصامهم بعصمة الإيمان، فقال : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) الكهف/١٤

ونبه الله عباده المؤمنين على جملة من أسباب الحيدة، والفتور، فقال معاتباً، منبهاً : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) الحديد/١٦. فطول الأمد بانقطاع القلب عن الخشوع، يورث القسوة والفسق.

وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يعتني بأمر الثبات، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ:كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ) رواه الترمذي، وغيره. وكان يأمر أصحابه أن يسألوا الله الثبات، فعن شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ) الحديث. رواه أحمد، وأهل السنن.

وربما حفظ الدارس بعض المتون العقدية واستشرحها، فلا تتمكن معانيها في قلبه حتى يبتلى، فينصع الإيمان في قلبه، وربما فُتن، فافتتن، وزلت به قدم.

وأسباب الزلل كثيرة، شهيرة، متنوعة؛ من صنوف الشبهات، والشهوات. وفي هذا الزمان الذي اتصلت به الأمم بعضها ببعض، تعتري بعض المشتغلين بالدعوة،

ما يسمى بـ(الصدمة الحضارية) حين تبهره المنجزات المادية، والمساجلات الفكرية، لدى أمم الكفر، فتحدث له حالةً من فقدان التوازن، واهتزاز الثوابت، ويخيل إليه أنه بحاجة إلى (مراجعات) و(تصحيح)، ويفقد الثبات .

وآخرون تحرجهم المواجهة الجماعية، والأضواء الإعلامية، فيسوغون لأنفسهم الإدلاء على الدين، باسم (مصلحة الدعوة)، ودعوى (التيسير) و (الترغيب) .

وصنف ثالث ترهقهم الدعاوى العريضة، والتهم الباطلة، ولبس الحق بالباطل، والخوف من التصنيف، والنبز بالإرهاب، فيقع له نوع استزلال، ويستعمل لغةً رخوة، يستدفع بها شنآن المبطلين، فلا تغني عنه شيئاً؛ فإنهم لا يرضون منه إلا أن ينسلخ عن دينه، ويماهيهم، ويضاهيهم، كما قال تعالى : (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) البقرة/١٢٠.

ووسط هذه الأمواج المتلاطمة، من المخاوف، والرغائب، والآراء، والأهواء، تبقى (العقيدة) (العروة الوثقى) التي يعتصم بها من سبقت لهم من الله الحسنى. (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) آل عمران/١٠١ يا عباد الله فاثبتوا.

العزيمة على الرشد والإجازة

(العزيمة على الرشد) توأم (الثبات في الأمر) في حديث شداد بن أوس، رضي الله عنه، مرفوعاً: (إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ..) الحديث، رواه أحمد، وأهل السنن. كما أن العزم، والرأي قرينان، عند أهل العقل والتجربة، قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأي أن تترددا

والقوى نوعان: قوة علمية، وقوة عملية:

١- فمن الناس من يؤتى قوةً علمية؛ فيكون ثاقب النظر، حاد الذهن، سيما إذا لقحته التجارب والتحصيل، ولكنه ذو فتور بدني، وهمة باردة، وتسويف، وتعلل.

٢- ومن الناس من يؤتى قوةً عملية، ونشاطاً، وخفةً، كأنما يعيش حالة استنفار

حرر في: ١/ ٧/ ١٤٢٨هـ

دائمة، إلا إنه قاصر النظر، كليل الذهن، تحيره المسائل، وتدهشه الأغلوطات.

٣- ومن الناس من يكون بليد الذهن، واهن البدن. فذاك بأحط المراتب .

٤- ومن الناس من يجمع الحسنيين، فيؤتى القوتين : الرأي الثابت، والعزيمة الماضية، فذاك بأعلى المراتب، وبه تنال السيادة، والقيادة، والريادة، والسعادة.

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) رواه مسلم.

فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صفات القوة المؤثرة، النافعة، المنتجة :

١- القوة العلمية : المتمثلة في الإيمان، وخصاله؛ من الاستعانة، والرضا بالقدر.

٢- القوة العملية : المتمثلة في الحرص، واطراح العجز، وترك التلوم .

ومضمار الحياة مليء بالشواهد على تفاوت البشر في تحقيق المقاصد، بسبب تفاوتهم في التحقق من الوصفين السابقين ؛ صواب الرأي، والعزيمة. وبين يدي الإجازة الصيفية تنكشف هذه المفارقات :

١- فمن الناس من تدحرجه الأيام، وتطوحه الأحلام؛ يأكل، ويشرب، وينام، ويستيقظ، فلا يدري إلا وقد طُوي بساط الإجازة، دون تحقيق إفادة.

٢- ومنهم من يشحذ ذهنه، ويقدح زناد فكره، ويمتشق قلمه، ويخط خطوطاً، ويفقِّط أهدافاً، ويرسم مشاريع تناسب المرحلة، فيجني الثمار الحلوة.

فحري بالمؤمن الحصيف، أن يختار خيري التصنيف، ويربأ بنفسه عن حال أهل البطالة، والكسل والملالة. وأخص بالذكر، الشباب الصاعد، الواعد، فعليهم، بعد الله، تعقد الآمال، في إيقاظ همتهم، وإصلاح أمتهم. فدونكم ، يا رعاكم الله:

١- الدورات العلمية الشرعية، التي تفقهكم في دين الله .

٢- الجولات الدعوية التي تنشر الخير والفضيلة والذكرى.

٣- المشاريع الاجتماعية المتنوعة التي تنفع البلاد والعباد.

وقد قال الله تعالى: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) النساء/١١٤ . قال السعدي رحمه الله: (أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه. ثم استثنى تعالى فقال: (إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ) من مال، أو علم، أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة؛ كالتسبيح، والتحميد، ونحوه،... (أَوْ مَعْرُوفٍ) وهو الإحسان، والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، ... (أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع، والخصام، والتغاضب، يوجب من الشر، والفرقة، ما لا يمكن حصره... ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا لأن النية حصلت واقترن بها ما يمكن من العمل) تفسير السعدي.

تلك هي مراقي الكمال، فأين الصاعدون، وتلك مغانم الحياة، فأين المتسابقون.

العقيدة والعبادة

العادة والعبادة

(العبادة) تزيد على (العادة) مبنىً، ومعنىً! العبادة قلب وقالب، روح وصورة. والعادة جزء ذلك؛ شكل، وطقس، وهيكل، فحسب . العبادة انفعال، ووجد، وذوق صحيح، والعادة إلف، وتكرار .

والحديث هاهنا، لا عن (العادة) المذمومة التي يتوارثها جيل عن جيل، وقبيل عن قبيل، من الكفر، والسوء، والفحشاء، من جنس من قال الله فيهم : (إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) الزخرف: ٢٢-٢٣، وإنما في تحول العبادات الأصلية، إلى عادات شكلية . ولا ريب أن النية هي الفيصل بين العادة والعبادة.

والنية نيتان :

١- نية مصحِّحة : بدونها يبطل العمل، ويرد ، وعليها الشق الأول من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات) رواه البخاري. ولهذا كانت (النية) بهذا المعنى شرطاً في صحة جميع العبادات .

حرر في : ٧/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

٢- نية مقرِّبة : وهي ما يقوم في القلب من معاني التعبد لله تعالى، والمتابعة لنبيه صلى الله عليه وسلم، قلةً وكثرة، وقوةً وضعفاً . وعليها الشق الثاني من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وإنما لكل امرئ ما نوى) رواه البخاري

والناس أوزاع في هذا المضمار الطويل مابين واقف عند الحد الأدنى، ومنقطع أثناءه، وموغل فيه برفق وتؤده، يتنسم عبير الجنة، ويسلي نفسه بأنس الملاقاة، من المصطفين الأخيار ، والعباد الأبرار .

ويظهر الفرق بين صاحب العبادة، وصاحب العادة في النواحي التالية :

أحدها : صاحب العبادة ملتذ بعبادته، مستشعر لخفتها ، وصاحب العادة ضائق بها، يسعى إلى إلقائها عن عاتقه، والتخفف منها . ولسان حال الأول : (أرحنا بها) ولسان حال الثاني: (أرحنا منها) .

الثانية : صاحب العبادة يشتاق إلى أدائها، ومعاودتها، زماناً، ومكاناً، وهيئة، وقلبه معلق بها ، فهو فيها كالسمك في الماء، والطير في الهواء. وصاحب العادة لا يرفع بها رأساً، ولا يرى بانقطاعها بأساً ، فهو فيها كالسمك في الفضاء، وكالطير في القفص.

الثالثة : صاحب العبادة عمله ديمة، وإنما يعتريه نشاط وفتور طبيعيان، فهو كالفرس المربوط في آخيته، مهما استرسل، لا بد له من العود، والمصابرة، والمرابطة، حتى يدركه الأجل . وصاحب العادة موسمي الطاعة؛ ربما تحامل على نفسه مراعاة لزمان، أو مكان، ثم لا يلبث أن ينقطع نفسه، ويفنى زاده، بعد الوهلة الأولى، ودهشة الجديد . واعتبر حالك برمضان؛ كيف كنت فيه، وكيف كنت بعده ؟ فأهل العبادة ودعوه بالدموع، والشوق إلى لقائه من جديد. وأهل العادة تنفسوا الصعداء، وعادوا لسيرتهم الأولى . والموفق من أعانه الله على ذكره، وشكره، وحسن عبادته .

العقيدة والصلاة

(الصلاة) أشرف العبادات، وأعظم مباني الإسلام بعد الشهادتين. فرضها الله في العهد المكي، قبل بقية شرائع الإسلام. وهي العبادة الوحيدة التي التي جرى إقرارها فوق السماوات العلى، عند سدرة المنتهى، ليلة الإسراء والمعراج، في حال سمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم صريف الأقلام، وكلمه ربه من وراء حجاب، فافترضها عليه خمسين صلاةً في اليوم والليلة، حتى مرَّ، هابطاً، بموسى عليه السلام، وأمره بمراجعة ربه في التخفيف، فلم يزل يحط عنه عشراً،عشراً، حتى استقرت على خمس صلوات في اليوم والليلة، ونادى منادٍ من السماء : (إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا) رواه البخاري.

ولم تزل الصلاة منذ ذلك الحين، قرة عيون الموحدين، وشعار الصالحين، ومفزع الخائفين، ومستراح الراجين، وروضة المحبين . ولم يزل معلم الناس الخير، صلى الله عليه وسلم، يعظم شأنها، ويعلي أمرها، قولاً، وفعلاً؛ يقيمها مستوفيةً شروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها، في أوقاتها، جماعةً مع المسلمين، في مسجده الشريف. ويجعل لبيته

حرر في : ٢٦ / ٢ / ١٤٣٠ هـ

حظاً وافراً من التطوع، نافلةً؛ من الرواتب، وقيام الليل.

وكان يقول : (حبب إلي من دنياكم : النساء و الطيب و جعلت قرة عيني في الصلاة) رواه أحمد، والنسائي. وصححه الألباني .

(وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى) رواه أحمد، وأبو داود.

ولما شارطه بعض العرب على أن يسلموا، ولا يصلوا! قال : (لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا رُكُوعَ فِيهِ) رواه أحمد. وقال ابن إسحاق، في سياق قصة وفد ثقيف : وسألوه أيضا أن يضع عنهم الصلاة، فقال لهم : (لا خير في دين بلا صلاة) .

وكَانَ مِنْ آخر وَصِيَّة رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ : (الصَّلَاةَ، الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ) رواه أحمد

فما السر يا ترى في هذه الشعيرة العظيمة، التي كانت أول الأمر، وآخره، وأمكنه مكاناً، وأعمه زماناً؛ بحيث تستوعب المكان : (وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا) رواه البخاري، وتستغرق الزمان ، قال تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا . وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) الإسراء/٧٨، ٧٩ ؟!

إن المتأمل في حقيقة الصلاة، وصورتها، يدرك أن هذه الشعيرة صلة حميمة بين العبد وربه، يفتتح بها العبد الفقير، الضعيف، الذليل، باب مناجاة مع الإله، الغني، القوي، العزيز، يكبره، ويسبحه، ويحمده، ويوحده، ويدعوه. وتلك حقيقة العبودية. وحين يصف قدميه في محرابه، ويصوِّب بصره إلى موضع سجوده، ويحني قامته راكعاً، ويخر ساجداً، ليضع أشرف ما فيه؛ جبهته، وأنفه، على الأرض، تواضعاً لمولاه، واطِّراحاً بين يديه. وتلك حقيقة العبودية.

فالصلاة إذاً من أجلى مظاهر العبودية، وصلتها بالعقيدة صلة الغذاء بالبدن؛ به قوامه، ونشاطه، وصحته. فإذا أُدِّيت على الوجه الأمل استحالت طاقةً جبارة، ووقوداً هائلاً، يمد صاحبه بالأمن، والصبر، واليقين، والفرقان، والضياء، وسائر ثمرات الإيمان. قال صلى الله عليه وسلم : (وَالصَّلَاةُ نُورٌ) رواه مسلم.

إن حاجة المؤمن إلى الصلاة، أعظم من حاجته إلى الطعام، والشراب، والنَّفَس.

إن الصلاة، بمختلف مظاهرها، تجدد العقيدة، وتذكي جذوة الإيمان، وتطهر القلب من الران، والغان، والأوشاب، والأخلاط الرديئة، التي تحول دون أدائه وظيفته على الوجه الأكمل. ولأجل ذا نشرها الله تعالى في ساعات اليوم والليلة، لتجديد الإيمان، وتنقية القلب من الشوائب. قال صلى الله عليه وسلم: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا) متفق عليه.

فلا غرو أن يأمر الله بها أنبياءه، حين يتصدون للمهام العظام، كما قال لموسى عليه السلام، حين كلّمه: (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) طه/١٣، ١٤

إن الذكر الذي تنشئه الصلاة توثيق للعهد، وجلاء للقلب، يضع صاحبه على الجادة، والصراط المستقيم. وشرط ذلك أن يصلي صلاةً خاشعة، يستجمع فيها قلبه، وهمه، فيقوم مقام العبودية التامة، ليجني ثمراتها التامة، ولهذا كان الخشوع فيها من أخص أوصاف المؤمنين. قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) المؤمنون/١، ٢

ولمّا كانت الصلاة على هذه الدرجة الرفيعة، والصلة الوثيقة بالإيمان، والعقيدة، صار تاركها كافراً كفراً مخرجاً عن الملة، على الصحيح من أقوال أهل العلم. قال تعالى: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) التوبة/٥، وقال: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) التوبة/١١. وقال صلى الله عليه وسلم: (الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجة. وقال: (إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ) رواه مسلم.

ألا ما أحوجنا إلى الصلاة الخاشعة، المطمئنة، المخبتة، لنحيي بها موات قلوبنا، ونجلو صدأها، ونعمر خرابها، فيعود القلب بيتاً للرب في العبد، كما الكعبة بيت للرب في الأرض. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

العقيدة والزكاة

لازم مصطلح (الزكاة) و (التزكية) دين الإسلام، من حين ظهوره، لكونه وظيفة العمر، ولب الإيمان. فالقرآن المكي يعلي شأن الزكاة، ويشيد بأهلها، كما قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) الأعلى/١٤، وقال: (قد أفلح مَنْ زَكَّاهَا.وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) الشمس/٩، ١٠، وحض عليها، ورغَّب، فقال: (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) فاطر/١٨، ووعد، وأغرى أهلها، فقال: (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) طه/٧٦، وذم تاركيها من المشركين، فقال: (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ.الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) فصلت/٦، ٧.

تلك هي الزكاة، بالمعنى الأعم، الأوسع، الذي يدل على الطهارة، والنماء، وتنقية النفس من شوائب الشرك، والبدعة، والأهواء، والأخلاق الرذيلة، حتى إن الله جعلها ثالثة التوحيد، والصلاة، فقال: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) البينة/٥.

حرر في: ١٦/ ٨/ ١٤٣٠ هـ

وأما الزكاة بالمعنى الأخص، فهي من أمهات العبادات، وأصول الشرائع الموجودة في كل ملة، وشرعة، أنزلها الله، وهي قرينة (الصلاة) في كتاب الله، لا تكاد تنفك عنها، في شرعنا، وشرع من قبلنا؛ فقد قال تعالى آمراً بني إسرائيل، في أكثر من موضع : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) البقرة/٤٣، ٨٣، وأمر بذلك المؤمنين من هذه الأمة، في عدة مواضع: البقرة/١١٠، النساء/٧٧، الحج/٧٨، النور/٥٦، المجادلة/١٣، المزمل/٢٠، وجعلها مع التوبة، والصلاة، شرط الأخوة الإيمانية، وعصمة الدم والمال، فقال: (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) التوبة/٥، (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) التوبة/١١، وأثنى على أهلها الثناء العطر، ووعدهم الخلف الفاضل، والثواب الجزيل. قال تعالى: (وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) المزمل/٢٠.

وإيتاء الزكاة، الذي جعله الله، ورسوله، من أركان الإسلام، هو التعبد لله تعالى ببذل القدر الواجب شرعاً في أموال مخصوصة؛ وهي : النقدان، وبهيمة الأنعام السائمة، والخارج من الإرض من الزروع، والثمار، وعروض التجارة، لأصناف ثمانية مخصوصة. قال تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) التوبة/٦٠ . وتفاصيل ذلك مبسوطة في كتب الفقه.

وأما صلة (الزكاة) بـ (العقيدة) فمن حيث كونها مظهر التعبد لله تعالى المتعلق بالمال. فللمال في حياة الآدميين تأثير كبير، ولنفوسهم به تعلق عظيم. فكما أن الله تعالى استنبط عبوديته من أعمال القلوب؛ بتوحيد المحبة، والخوف، والرجاء، واستنبط عبوديته من أعمال اللسان؛ بالذكر، والاستغاثة، والدعاء، واستنبط عبوديته من أعمال الجوارح، بالصلاة، والحج، والجهاد، كذلك استنبط عبوديته من الأموال، بالزكاة الواجبة، والصدقة المستحبة، والبر، والصلة المحمودة. وبذلك تكتمل حلقات العبودية لله رب العالمين . ومما يدل على عوثيق صلة الزكاة بالعقيدة، وإقامة الدين، ما رواه

البخاري، رحمه الله، عن أَبي هُرَيْرَةَ، رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ، رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ) فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ. وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا. قَالَ عُمَرُ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ .

وهذا البذل التعبدي لمحبوبات النفس من الأموال، يورث القلب تجرداً من العلائق الصارفة، والقيود المثقلة، عن إسلام الوجه لله تعالى، ويطهر النفس من خلق رذيل؛ هو (البخل)، ويهذب الطبع الأصيل (الشح)، قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) التوبة/١٠٣. كما إنه يسد حاجة المسلمين، وينشر التراحم، والتعاطف، والتكافل بينهم. فما أجمل شرائع الإسلام، وما أشد ترابطها، وتكاملها، وما أعظم إصلاحها للنفوس، والمجتمعات.

مهوى الأفئدة

أظلَّ الأمة الإسلامية شهر عظيم (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) . ورمضان موسم سنوي للتقرب إلى الله تعالى بأنواع العمل الصالح؛ من العبادات الخاصة، والعامة، أو (القاصرة) و (المتعدية) .

والملفت لنظر هو ذلك الشعور المتجدد بالحنين والشوق إلى شهر رمضان، رغم توالي الشهور والأعوام ! فلا يكاد يستدير الزمان، ويحول الحول، إلا ويشعر أهل الإيمان بلهفة وتطلع إلى حلول رمضان، كمن يستقبل حبيباً طال انتظاره، ويحتفون به احتفاء الكريم بالضيف العزيز !

وما ذاك إلا أثر من آثار (العقيدة) التي توجه المشاعر، وتجعل (الهوى) إيمانياً، كما في الحديث المروي : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) . فحين تستقر العقيدة في سويداء القلب يتم وزن (الحب) و(البغض) و(الفرح) و(الحزن) وفق معيار دقيق، ينضبط بتعاليمها، وتقويمها؛ للأمكنة، والأزمنة، والأعمال، والأشخاص، بل والجمادات !

حرر في : ٢/ ٩/ ١٤٢٨ هـ

أهل العقيدة تهفو أفئدتهم إلى البيت الحرام قبل أجسادهم ، قال تعالى : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) إبراهيم : ٣٧

وأهل العقيدة يستبشرون بالأزمنة الفاضلة، ويهنئ بعضهم بعضاً بحلولها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(أتاكم رمضان؛ شهر مبارك، فرض الله عليكم صيامه. تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه مردة الشياطين. لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم) . رواه أحمد والنسائي. وصححه الألباني .

وأهل العقيدة يبذلون الحب، والبغض، والولاء، والبراء، على أساس العقيدة، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) المائدة: ٥٤، وقال : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) الفتح: ٢٩، وقال نبيه صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) متفق عليه .

وأهل العقيدة يأنسون بما حولهم من مخلوقات الله، ويحبونها، لعبوديتها لله تعالى عبوديةً كونية ؛ فعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أحد جبل يحبنا ونحبه) . رواه البخاري .

فلا غرو أن يجد المؤمن في قلبه أنساً بهذا الشهر الكريم، وفي نفسه استرواحاً لأيامه الصِّباح، ولياليه الملاح، وفي بدنه نشاطاً على العمل الصالح . وكأنما رمضان (واحة في هجير العام) يحط فيها المسافر ، ليضع أثقاله، ويغسل أوزاره، ويجدد العهد مع ربه . جعلنا الله ممن يصوم نهاره إيماناً واحتساباً، ومن يقوم ليله إيماناً واحتساباً .

حكمة الصيام

الله عز وجل، حكيم في شرعه، كما أنه حكيم في قدره؛ فلا يأمر إلا بما للعباد فيه مصلحة محضة، أو مصلحة راجحة، ولا ينهى إلا عما على العباد فيه مفسدة محضة، أو مفسدة راجحة . وبسط ذلك في كتب الأصول، ومقاصد الشريعة .

والحكمة الإلهية تارةً تكون منصوصة، وتارةً تكون مستنبطة ، وتارةً تكون تعبديةً غير مدركة . والاستنباط يكون حيناً جلياً، ويكون حيناً خفياً .

والصيام عموماً، وصوم رمضان خصوصاً ، قد تضمن العديد من الحكم الإلهية المتنوعة؛ منها المنصوص، ومنها المستنبط، ومنها الخفي. ومن أبرز هذه الحكم المنصوصة:

أولاً : تحقيق تقوى الله تعالى : كما نص ، سبحانه على ذلك بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة: ١٨٣ فللكف عن الطعام والشراب والنكاح وسائر المفطرات أثر في تحقيق التقوى من وجهين: أحدهما: وجداني : فإن شعور المتعبد بالإمساك عن المحبوبات تعبداً لله

حرر في : ٩/ ٩/ ١٤٢٨ هـ

تعالى، يذكره بحقيقة عبوديته، وانقياده، وخضوعه، لمعبوده، فيزيد إيمانه وتقواه.

الثاني : عضوي : وذلك أن قمع البدن عن الشره، والنهم، في المآكل، والمشارب، والنكاح، يضعف فوعة النفس الأمَّارة، ويطامنها، ويذهب عدوانيتها، فتخبت وتستكين. وتقوى الله تعالى حالة قلبية، قبل أن تكون سلوكاً ظاهرياً ، فإذا استقرت فيه، انبعثت الجوارح تلقائياً بالاستجابة، طواعية، وتلذذاً بالعبادة . وهذا هو :

ثانياً : الاستكثار من العمل الصالح : يخيل للمرء، لأول وهلة، أن الصوم يقعد به عن العمل، وأنه يورث الخمول والكسل ! والواقع أن الصوم عموماً، وصوم رمضان خصوصاً، ينشئ في النفس دافعية ورغبة في العمل الصالح . فلا غرو أن تجتمع في رمضان بالإضافة إلى الصيام، أمهات الأعمال الصالحة :

١- الصلاة : ففي الحديث : (مَنْ قَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) رواه النسائي ٧ / ٣٨٤ ، وأصله في الصحيحين .

٢- الصدقة الواجبة والمستحبة : كان عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يقول على المنبر : (هَذَا شَهْرُ زَكَاتِكُمْ فَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَلْيُؤَدِّ دَيْنَهُ حَتَّى تَحْصُلَ أَمْوَالُكُمْ فَتُؤَدُّونَ مِنْهُ الزَّكَاةَ) رواه مالك : الموطأ: ٢ / ٢٧٠، ولم يزل المسلمون يحرصون على إخراج زكواتهم في رمضان، تحرياً لشرف الزمان . وأما الصدقة المستحبة ، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال : (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ . وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ) متفق عليه .

٣- الحج الأصغر : وهو العمرة . فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَجَّتِه قَالَ لِأُمِّ سِنَانٍ الْأَنْصَارِيَّةِ: (مَا مَنَعَكِ مِنْ الْحَجِّ ؟) قَالَتْ: أَبُو فُلَانٍ، تَعْنِي زَوْجَهَا، كَانَ لَهُ نَاضِحَانِ، حَجَّ عَلَى أَحَدِهِمَا، وَالْآخَرُ يَسْقِي أَرْضًا لَنَا. قَالَ: (فَإِنَّ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً، أَوْ حَجَّةً مَعِي) رواه البخاري - ٦ / ٤١٠

٤- قراءة القرآن: وهو أعظم الذكر ، ولا يخفى اختصاص رمضان بالقرآن، قال تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى

وَالْفُرْقَانِ) البقرة : ١٨٥. وقد كان السلف يأتون بالعجب العجاب من كثرة الختمات في رمضان، حتى إنهم يمسكون عن رواية الحديث، وتعليم العلم، ويقبلون على القرآن .

ثالثاً : الأدب، والسمت الحسن : إن مما ينشره الصوم في نفس الصائم تلك الجلالة، والمهابة،والحشمة، والأدب الرفيع، الذي يتنزه به عن رديء الأخلاق،ومهاترات السُّوقة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ؛ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ) متفق عليه .

أسرار الصيام

الصيام في صورته الظاهرة إمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وبذلك تبرأ الذمة، ويسقط الطلب. إلا إن هذه الشعيرة المباركة تنطوي على أسرار خفية، ونفحات ندية، يكتشفها الصائمون في أعطافها، ويذوقون حلاوتها:

١- فالصوم مدرسة الإخلاص : فما من عبادة كالصوم يتحقق فيها الإخلاص للمعبود. فلو شاء الصائم لأوصد الأبواب، وأرخى الستور، وانقض على الطعام والشراب. لكنه لا يفعل ! لم ؟ لأنه أراد الله والدار الآخرة . وهذا معنى ما ورد في الحديث القدسي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ) متفق عليه . ولمّا كان كذلك، أدركته بركة الإخلاص، فضوعف ثوابه، من غير عد. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي) رواه مسلم .

وهذا العرض المغري، يربي المؤمن على تحقيق الإخلاص في جميع العبادات، ويحمله

حرر في : ١٦/ ٩/ ١٤٢٨ هـ

على تنقيتها من الشوائب، وحظوظ النفس، لينال الأجر المضاعف، كما دل على ذلك قوله تعالى ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١١٤

٢- والصوم مدرسة الأخلاق : إن تلبس المؤمن بهذه العبادة الجليلة يخلع عليه مهابةً، ووقاراً، ويكسوه سمتاً، ودلاً حسناً، لما يقع له من كسر لحدة النفس الأمارة، ومطامنة لفوعة الانتصار للذات .قال صلى الله عليه وسلم : (الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ) متفق عليه .

وهذا المسلك في التعامل مع السفهاء يعود المؤمن على الحلم، والصبر، والصفح، ونحوها من الأخلاق الكريمة . وفي هذا الجواب المختصر: (إني صائم) فوائد عديدة :

أولاً : أنه يحفظ كرامة الصائم ! فكأنه يقول للجاني : إنه ما منعني من الانتصاف منك ضعف ولا مذلة، وإنما احترام هذه الشعيرة التي زينني الله بها .

ثانياً : أنه يخجل الجاني؛ أن تطاول على عبدٍ مطيع لله، لائذٍ بجنابه، وربما حمله على الاعتذار، أو التوبة .

ثالثاً : أنه يحفظ صحة الصائم ! فمن المعلوم أن المشاتمة، والمقاتلة، تؤدي إلى الانفعال، وبذل الجهد الذي يضعف الصائم، وربما يُضر به . فكان جوابه نوع حصانة من تداعيات الخصومة وما قد تسببه له مع ضعف البدن .

٣- والصوم مدرسة في البذل : يكتشف الصائم، خلافاً للمتوقع، أن الصوم يفجر الطاقات الكامنة، ويحفز القلب والبدن على البذل والعطاء، بصورة تفوق حال الفطر! فيجد في نفسه خفةً للعمل الصالح، وفي يده سخاوةً للصدقة، وفي وقته بركةً وإنتاجاً . فربما صلى من الركعات مالا يركعه في عام ! وربما ختم من القرآن مالا يختمه في عام ! وربما بذل من الصدقات والقربات مالا ينفقه في عام ! كل ذلك بطيب نفس، وانشراح صدر، مع أنه شهرٌ بين هلالين كسائر الشهور .

اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين .

هدى للناس

سبحان من حبب الإيمان إلى عباده المؤمنين، وزينه في قلوبهم ! فإذا انقضى رمضان، واستدار الزمان، وأقبل رمضان آخر ، تاقت نفوس الصالحين للقياه، واشرأبت أعناقهم لترائي هلاله، وانشرحت صدورهم لصيامه، وقيامه. فكما أن القرآن الذي أنزل في شهر رمضان لا يَخلَق على كثرة الرد، فرمضان أيضاً لا يبلى مع العود.

ولمَّا علم الله من حال عباده الخلل والقصور، هيأ لهم مواسم مضاعفة الأجور. ولمَّا علم ما يدركهم من السآمة والفتور، شرع لهم ما يبعث النشاط، ويجلب السرور.

يتوفر كثير من الناس خلال حياته العملية، على الاشتراك في دورة علمية، أو عملية، يشحذ فيها عزمه، ويستنفر طاقته، ليحوز مهارة، وينال شهادة. رمضان دورة مكثفة، ومدرسةٌ متخصصة، بل جامعة تضم بين جنباتها أنواع الهدى :

أولاً : هداية إيمانية : قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ

حرر في : ٣٠ / ٨ / ١٤٢٩ هـ

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة/١٨٣. فغاية الصيام، ومقصوده تحصيل التقوى التي هي أكرم وصف اتصف به العبد : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣ . وسر ذلك، والله أعلم أن الصوم يقمع فورة النفس، وفوعة الهوى، بسبب ما يحصل للصائم من كف النفس عن ملاذها، وكسر حدتها. وكيَّف ذلك بعض أهل العلم تكييفاً عملياً، بكون الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما في الحديث الصحيح، فمع الصوم تضيق مجاريه، فلا يصل إلى ما كان يصل إليه في غيره.

ثانياً : هداية تعبدية : رمضان مجمع أمهات العبادات :

فهو شهر الصلاة والقيام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَغِّبُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِعَزِيمَةٍ، ثُمَّ يَقُولُ: (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) رواه أبو داود. وعنه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) متفق عليه.

وهو شهر الزكاة، والصدقة، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ) رواه البخاري.

وهو شهر الصوم فرضاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) متفق عليه.

وهو شهر الحج الأصغر، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَجَّتِهِ قَالَ لِأُمِّ سِنَانٍ الْأَنْصَارِيَّةِ: (مَا مَنَعَكِ مِنْ الْحَجِّ ؟) قَالَتْ: أَبُو فُلَانٍ، تَعْنِي زَوْجَهَا، كَانَ لَهُ نَاضِحَانِ، حَجَّ عَلَى أَحَدِهِمَا، وَالْآخَرُ يَسْقِي أَرْضًا لَنَا. قَالَ: (فَإِنَّ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً، أَوْ حَجَّةً مَعِي) رواه البخاري.

ثالثاً : هداية خلقية، مسلكية : ذلك أن الصوم يربي الصائم على الصبر، والتجلد. والصبر من أمهات الأخلاق، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه،أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ

فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، قَالَ: (مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ، فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ. وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدًا مِنْ عَطَاءٍ أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) رواه أبو داود . وفي الصوم صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على الأمور المؤلمة. فالصوم مدرسة تربوية، ترفع النفس عن دنايا الأمور، وسفسافها. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الصَّوْمُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ فَإِنْ امْرُؤٌ شَتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ) رواه أحمد. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) رواه البخاري.

فالصوم حقاً (هدى للناس) ! فلله درُّ من أدرك هذه المعاني، وحقق هذه المقاصد، ولم يجعل حظه من رمضان الجوع، والعطش، والتعب، والسهر، بل حقق التقوى، والدلَّ الحسن، وحصَّل الخشوع، وسار على السنن.

إيماناً واحتساباً

مما يلفت النظر في ذكر فضائل رمضان من صيام، وقيام، التأكيد على وصفين عظيمين كشرط لحصول المغفرة، وهما الإيمان، والاحتساب: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه . ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه . ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

فما المراد بالإيمان، والاحتساب هاهنا ؟

قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله: (أَيْ مُؤْمِنًا مُحْتَسِبًا ، وَالْمُرَاد بِالْإِيمَانِ: الِاعْتِقَاد بِحَقِّ فَرْضِيَّة صَوْمه ، وَبِالِاحْتِسَابِ: طَلَب الثَّوَاب مِنْ اللَّه تَعَالَى. وَقَالَ الْخَطَّابِيّ : احْتِسَابًا أَيْ عَزِيمَة، وَهُوَ أَنْ يَصُومهُ عَلَى مَعْنَى الرَّغْبَة فِي ثَوَابه طَيِّبَة نَفْسُهُ بِذَلِكَ غَيْر مُسْتَثْقِل لِصِيَامِهِ وَلَا مُسْتَطِيل لِأَيَّامِهِ) فتح الباري لابن حجر - (ج ٦ / ص ١٣٨)

وقال ابن بطال : (إيمانًا واحتسابًا - يعنى: مصدقًا بفرض صيامه، ومصدقًا بالثواب على قيامه، وصيامه. ومحتسبًا: مريدًا بذلك وجه الله، بريئًا من الرياء والسمعة، راجيًا

حرر في : ٦/ ٩/ ١٤٢٩ هـ

عليه ثوابه) شرح ابن بطال - (ج ١ / ص ٧٩)

وقال النووي، رحمه الله : (مَعْنَى (إيمَانًا) تَصْدِيقًا بِأَنَّهُ حَقّ، مُقْتَصِد فَضِيلَته، وَمَعْنَى (احْتِسَابًا) أَنْ يُرِيد اللَّه تَعَالَى وَحْده لَا يَقْصِد رُؤْيَة النَّاس ، وَلَا غَيْر ذَلِكَ مِمَّا يُخَالِف الْإِخْلَاص) شرح النووي على مسلم - (ج ٣ / ص ١٠١)

وقال شيخنا، محمد بن صالح العثيمين، رحمه الله : (يعني إيماناً بالله، ورضاً بفرضية الصوم عليه، واحتساباً لثوابه، وأجره، لم يكن كارهاً لفرضه، ولا شاكاً في ثوابه، وأجره، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه) مجالس شهر رمضان : ص : ١٤

إن التحقق بهذين الوصفين يورث التقوى المرجوة، ومغفرة الذنب الموعودة . وما أحرى المؤمن أن يتمثل هاتين الكلمتين، وهو يلحظ الماء النمير يترقرق في شدة الهجير، وتداعب أنفه رائحة الطعام الشهي، وجوفه خلي. وما أحراه أن يستدعي هذا المعنى حين يصف قدميه في محرابه، أو خلف إمامه، رافعاً كفيه إلى فروع أذنيه، مستفتحاً قيام الليل. إن ذلك يحيل جوعه، وعطشه، وتعبه، وسهره، حلاوةً إيمانية، ونعيماً روحانياً. وحين تفتقد هذه المعاني، لا يبقى إلا الصورة الظاهرة، والجهد الغبين.

ولأجل ذا، كان للصوم معاملة خاصة، وتضعيف استثنائي، فقد روى الشيخان، وغيرهما، عن أبي هريرة، رضي الله عنه،قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قَالَ اللَّه: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ. وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ، أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ) .

العقيدة والقيام

إن أخص وصف لأهل الإيمان، تلك العلاقة الحميمة التي تربطهم بربهم ومعبودهم ، وأعظم ما يتجلى به ذلك التعبد هو (الصلاة) . قال تعالى: (قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون) المؤمنون: ١-٢

فإذا ما صفَّ المؤمن قدميه في محرابه، وصوب ناظريه إلى موضع سجوده، وأعلن أن (الله أكبر) بإطلاق ! انفتحت له آفاق واسعة، وتجليات بديعة، وأنس، وحلاوة، وتلذذ بالمناجاة. فهو يبث ربه شكواه، ويرجو لقاه، ويستعين به في مسعاه، في أحوال، وأذواق لا يدركها إلا الصالحون الموفقون، نسأل الله أن يلحقنا بهم :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها   عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وكما جعل الله صيام رمضان مدرسةً للإخلاص، جعل ليله سكناً لأفئدة المؤمنين، ومستراحاً للصالحين، ومدرسةً لتخريج حملة العقيدة الحقة المطمئنة . وكم أجنَّ الليل من قلوب، خافقة، وصدور هادرة، وعيون دامعة، تناجي رباً لا تراه، تخافه، وترجوه، وتحبه، وتشتاق إليه . قال تعالى : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ

حرر في : ٢٣/ ٩/ ١٤٢٨ هـ

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) السجدة: ١٦-١٧

حدثنا الله عن إخوة لنا، كانوا قبلنا، فأثنى عليهم وأحسن الثناء، فقال : (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) آل عمران: ١١٣، وأمر نبيه بالسير على سننهم، فقال : (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) طه: ١٣٠، ووقَّت له قيامه، ووصف له الكيفية، فقال : (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا) المزمل: ١-٦، ووعده، ورجَّه أعظم الرجاء، فقال : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) الإسراء: ٧٩، فامتثل، بأبي هو وأمي، أمر ربه، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُومُ مِنْ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: (أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا). فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ، ثُمَّ رَكَعَ. رواه البخاري. فكان لا يدع قيام الليل، في سفر، ولا حضر، إلا ما ذكر في ليلة مزدلفة، أو أن يشكو وجعاً. فعن عَائِشَةَ قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَاتَهُ الْقِيَامُ مِنَ اللَّيْلِ؛ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ بِنَوْمٍ، أَوْ وَجَعٍ صَلَّى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنَ النَّهَارِ) رواه أحمد.

وعلى هذا المهيع الرشيد سار أصحابه الكرام، وقد كان القيام مفروضاً عليهم أول الإسلام، لما يُعِدُّهم الله له من الكرامة، ليكون لهم زاداً، وقوةً، لمواجهة تكاليف البناء، والتأسيس، ثم خفف الله عن عباده، ووكلهم إلى إيمانهم ، ورغَّب، وحثَّ، وحض، على هذه المحمدة، فقال مستثيراً الهمم : (أم من هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) الزمر: ٩، واكتفى نبيه بالموعظة والتوجيه، فقال لِعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : (يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ) رواه البخاري

ألا ما أحوجنا اليوم إلى الالتحاق بهذه المدرسة، مدرسة القيام، لنصفي نفوسنا، ونهذب طباعنا، ونوثق عرى إيماننا، ونتذوق لذة المناجاة، التي وصفها المجربون،

فقال قائلهم : مساكين أهل الدنيا! خرجوا منها وما ذاقوا أحسن ما فيها ! قيل: وما أحسن ما فيها ؟ قال : لذة مناجاة الله .

ورمضان ظرف زمان، ومحل تسجيل، ودار تأهيل، للقبول في هذه المدرسة الشريفة العريقة ، فوق ما فيه من الغفران : (من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه . ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) .

فرحة الصائم وبهجة العيد

ما أجمل هذا الدين ، وما أحسن شريعته ! فهو يترحل بمعتنقيه من حال إلى حال، وينقلهم من عبادة إلى عبادة، فلا تزال نفوسهم في تجدد مستمر، وانبعاث للتعبد بأنواع العبادات.

هاهو رمضان يرحل من ساحتنا مودعاً بدموع المؤمنين، وابتهالاتهم، وتضرعاتهم بالقبول، بعد أن حل ضيفاً عزيزاً ، كريماً ، في جوانحهم، قبل مساجدهم، ومنازلهم، تاركاً أجمل الذكريات، مبقياً أثمن الدروس والعبر .

وفي الأفق المقابل يتراءى (العيد) ببهجته، وسروره، ليسكب في النفوس الجياشة طعماً آخر، ويصبغ الحياة الإيمانية بلون جديد . ولا تناقض بين الحالين، فكلاهما ينتظمه سلك العبودية ! فكما أن صيام المؤمن، وقيامه عباده، ففطره، وفرحه عبادة أيضاً ، قال صلى الله عليه وسلم : (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِه) متفق عليه. وهذا الانسجام بين الدنيا والآخرة، وبين الدين والدنيا، لا يتألق إلا في الإسلام .

الفرح نوعان :

أحدهما : مذموم : وهو فرح الأشر، والبطر، وارتكاب المنكر، الذي دل عليه مثل قوله

حرر في : ١/ ١٠/ ١٤٢٨ هـ

تعالى: (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) غافر: ٧٥، وقوله : (لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) القصص: ٧٦، وقوله : (وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) الحديد : ٢٣

الثاني : فرح العبادة : وهو الفرح بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى : (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) يونس: ٥٨، وهذا اللون قرين الإيمان، وثمرته، وعاجل بشرى المؤمن وحلاوته . وحقيقته امتلاء القلب بالغبطة بنعمة الله، والرضا عنه، والشكر له ؛ بالقلب، واللسان، والجوارح، كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

فالقلب يرقص طرباً بالنعمة المسداة، واللسان يلهج بفضل المنعم، والجوارح تنشط في التعرض لمراضيه. وما أجملها من حياة، وما أحسنها من عاقبة .

والمؤمن، في العيد، يعبد الله بالفرح، ويظهر ذلك من خلال المظاهر التالية :

١- التكبير، والاستعلان بالشكر، في المجامع، والمساجد، والبيوت، ليلة العيد، حتى دخول الخطيب، بسبب إكمال العدة، والعون على الطاعة . قال تعالى : (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) البقرة: ١٨٥

٢- زكاة الفطر : تعبير معنوي ومادي عن شكر الله، وسد الخلة، وتوثيق الرابطة الاجتماعية قال ابن عباس : (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، زكاة الفطر طهرةً للصائم من اللغو والرفث، وطعمةً للمساكين) رواه أبو داود، وابن ماجة، وصححه الألباني .

٣- صلاة العيد : في احتفال سنوي بديع ، يجمع أهل البلدة الواحدة على صعيد واحد، في أبهى حلة، وأكمل زينة؛ ظاهرة، وباطنة، يشهدون الخير، ويشكرون ربهم، ويسألونه القبول، وتتصافح قلوبهم، قبل أيديهم، فتُسل السخائم، وتطيب النفوس، وتحصل الصلة، والإلفة، وتوثيق العهود .

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال ، وأعادنا وإياكم لمثله أعواماً عديدة، والأمة الإسلامية ترفل بثوب النصر والتمكين، وبلغنا وإياكم الفرحة الكبرى بشهود يوم المزيد، عند رب حميد مجيد، إخواناً على سرر متقابلين . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الحصاد الكريم وحصاد الهشيم

ها هو ذا رمضان يلملم أوراقه، ويودع أحبابه، في مشهد عاطفي تتدفق له قلوب المؤمنين ، قبل عيونهم، وقد بدأ (العد التنازلي) في إكمال العدة . إلا إن هذا الختام المهيب، مجلل بتكبير المعبود، وشكر المنعم، قال تعالى : (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) البقرة/١٨٥

لقد أمضى المؤمنون في هذا الشهر أياماً بهيجة، وليالي أنيسة، في صلة حميمة مع ربهم، وخالقهم، ظمئوا، وجاعوا، وقاموا، ونصبوا، ابتغاء وجهه، ورجاء ثوابه، وتحصيل موعوده، فنالوا خيراً كثيراً، في هذه الدنيا، من صفاء القلوب، ولذة المناجاة، وصحة الأبدان، فوق ما يرجونه من ثواب الآخرة.

لقد أورثهم الصيام الهدايات التالية :

١- الإخلاص لله : بأداء عبادة لم يحملهم على الالتزام بها، مع إمكان تركها، إلا إرداة وجهه .

٢- التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم: بإمساكه، وفطره، وسمته، وتلاوته، وجوده، وقيامه، وكأنما هو ماثل أمامهم .

حرر في : ٢٧/ ٩/ ١٤٢٩ هـ

٣- استنباط معالي الأخلاق: من الصبر، والتعفف، والرحمة بالخلق، والترفع عن سفسافها؛ من قول الزور، والعمل به، والجهل، واتباع الهوى.

٤- إلف العبادة، والإنس بها، والتعود عليها: مما يهيئ للمداومة عليها؛ من صيام نفل، وقيام ليل، وصدقة.

وإلى جانب هذه الصورة الزاهية، التي رسمها الصيام في حياة المؤمنين، هناك مشهد كئيب، وصورة قاتمة، لبعض المنكوسين، المحجوبين، الذين لم يرفعوا رأساً بهذا الشهر الكريم، وما خرجوا إلا بحصاد الهشيم. وعلى رأس هؤلاء، ورأسهم ذَنَب، أصحاب الشهوات، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فينشروا خزيهم، ويكشفوا سوأتهم في رمضان، ويلقوا شباكهم النتنة بين الناس ليصطادوا كل ذي قلب مريض، عبر (حلقات) من مكر الليل والنهار، و(مسلسَلات) مسلسلات للعقول والقلوب، هادمات للقيم والأخلاق، مدمرات للقوى المعنوية للأمة. قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النور/١٩

وهذا الصنف الخاسر، لا يستحي، ولا يرعوي، بل يجاهر بإثمه، ببجاحة، حتى إذا ما صاح بهم أهل العلم، والغيرة، وحذروا من شرهم، وكشفوا عوارهم، تنادوا من كل فج عميق، وثاروا كأنهم حمر مستنفرة، ونادوا بالويل والثبور، على أهل الفضيلة والعلم، ورموهم بألقاب السوء؛ كالإرهاب، والتكفير، ومصادرة الحريات! ووالله إنهم بذلك أولى وأحرى (رمتني بدائها وانسلت) فهم الذين يزرعون الفتنة، ويؤسسون للإرهاب، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.

فسبحان الله، كيف فاوت بين العقول، والقلوب! وسخر الأبدان والجهود! وهنيئاً لكل باذل ما بذل، وكل حارث ما حرث. قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) الشورى/٢٠

تقبل الله من ومنكم الصيام والقيام، وأعاد علينا، وعليكم شهر رمضان، بخير، وعز، ونصر، وتمكين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

العقيدة والحج (١)

(التوحيد والإخلاص)

حج بيت الله الحرام أحد أركان الإسلام ، ومبانيه العظام . فرضه الله على عباده مرةً في العمر، من استطاع إليه سبيلاً ، لا ليستكثر بهم من قلة ، ولا ليستعز بهم من ذلة ، فهو الغني الحميد ؛ من أطاعه فقد رشد ، ومن كفر فلن يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئاً. قال تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ) آل عمران : ٩٧

والحج ، بالنسبة للفرد ، مدرسة إيمانية تربوية ، ومعلم طريق في حياته ، وحدث تاريخي، لا يزال يلهج بذكره .. يمضي الحاج أياماً في رحلة قدسية ، أنسية، يجتمع له فيها شرف الزمان ، وشرف المكان ، وشرف العمل :

١- فالزمان : عشر ذي الحجة، التي أقسم بها الرب ، عز وجل ، فقال : (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) الفجر : ٢ ، وقال عنها نبيه صلى الله عليه وسلم : (أفضل أيام الدنيا أيام العشر - يعني عشر ذي الحجة - قيل : ولا مثلهن في سبيل الله ؟ قال : ولا مثلهن في سبيل الله ، إلا رجل عفَّر وجهه بالتراب) رواه البزار، وابن حبان، وصححه الألباني .

حرر في : ١٣/ ١١/ ١٤٢٩ هـ

٢- والمكان : بيت الله الحرام ، والمشاعر العظام ؛ منى، ومزدلفة، وعرفة . قال تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) آل عمران : ٩٧

٣- والعمل : أحب العمل إلى الله ، قال صلى الله عليه وسلم : (ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام - يعني أيام العشر - قالوا : يا رسول الله : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه، وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء)رواه البخاري. وأي عمل أعظم مما اختصه الله بها، وهو الحج الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) رواه مسلم.

والحج ، بالنسبة للأمة ، مؤتمر سنوي ، وتظاهرة عالمية ليس لها نظير ! تنصهر في رحابه مختلف الأعراق، واللغات، والبلدان، والطبقات، في وحدة إيمانية، ولُحمة أخوية ومناسك مشتركة، تدهش الناظرين ، وتدل على حكمة أحكم الحاكمين .

وقد وعد الله عباده المستجيبين لندائه شهود منافع مطلقة، لا حصر لها ، ولا حد، فقال : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) الحج : ٢٧-٢٨ . وفيما يلي التماس لأهم تلك المنافع التي يشهدها حجاج بيت الله الحرام ، ويرجعون بها إلى أهليهم، ويبقى لهم غنمها :

التوحيد والإخلاص :

إن القارئ لآيات بناء البيت ، ورفع قواعده ، والأذان بالحج ، يلحظ التلازم الوثيق بين هذا الحدث الكبير ، وتقرير التوحيد ، ونبذ الشرك . قال تعالى :

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) الحج : (٢٦)

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَنْ يَرْغَبُ

عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) البقرة : ١٢٧-١٣١

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ . حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) الحج : ٣٠-٣١

كما يجد المتتبع لسياق حجة النبي صلى الله عليه وسلم إعلان التوحيد ، في عدة مشاهد مشرقة ، منها :

١- التلبية : ففي حديث جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما : (فأهلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد ، والنعمة ، لك ، والملك . لا شريك لك) رواه مسلم .

٢- سؤال الله الإخلاص : فقد سأل ربه قائلاً : (اللهم حجة، لا رياء فيها ولا سمعة) رواه ابن ماجه . فإن بذل الأموال ، ومفارقة الأهل والوطن ، والتعرض للأخطار ، مظنة لتسلل العجب والرياء إلى النفس .

٣- قراءة سورتي التوحيد؛ العملي، والعلمي؛ الكافرون، والإخلاص، في ركعتي الطواف

٤- ذكر الصفا والمروة : قال جابر، رضي الله عنه : (فاستقبل القبلة ، فوحَّد الله ، وكبره ، وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده)

٥- الدعاء : وهو من أعظم مظاهر التوحيد ، حين يقبل العبد على ربه ، بكليته؛ خائفاً، راجياً ، طامعاً، راغباً ، راهباً ، منيباً ، متضرعاً، مبتهلاً . وقد وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم في ستة مواقف طوال في حجة الوداع : على الصفا، وعلى المروة، وفي عرفة ، وعلى المشعر الحرام في المزدلفة ، وبعد رمي الجمرة الصغرى ، وبعد رمي الجمرة الوسطى ، في سائر أيام التشريق .

فحري بمن أشهده الله هذه المواطن الشريفة ، أن يفقه هذه المعاني الشريفة، وأن ينفض الغبار عن نفسه ، ويجلو صدأ قلبه ، ويذكي جذوة التوحيد في روحه .

فكما أن الكعبة بيت الرب في الأرض ، فالقلب بيت الرب في العبد . وكما أن الكعبة يطيف بها الحجاج والعمار ، فيينبغي أن يطيف بالقلب الخوف، والرجاء، والمحبة، والتوكل ، والإنابة ، والاستعانة ، والاستغاثة ، وغيرها من وظائف القلب السليم .

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم خير الذكر والدعاء ، ما يكون في خير يوم طلعت فيه الشمس ، يوم عرفة ، فقال : (خير الدعاء دعاء يوم عرفه ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير) رواه الترمذي ، وفي لفظ : (أفضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة) رواه الطبراني ، وحسنه .

العقيدة والحج (٢)

(المتابعة والانقياد)

ما من عبادة من العبادات يتجلى فيها الانقياد التام ، والمتابعة المطلقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كالحج ! فالحاج يتقلب في مناسك متنوعة ، ويتنقل بين مشاعر متعددة ، لا يعقل لكثير منها معنى ، سوى الامتثال لأمر الله ، والتأسي برسول الله . فهو يقبل حجراً تارةً ، ويرمي حجراً تارةً أخرى ! وهو يتجاوز مشعراً ، ليصل إلى آخر ، ثم يعود إلى الأول ! وهو يطوف سبعاً ، ويسعى سبعاً ، ويرمي بسبع ، دون أن يدرك معنى خاصاً للعدد !

وقد أدرك الصحابة ، رضوان الله عليهم، أهمية المتابعة ، وشعروا بالحاجة إلى تصحيح مناسك إبراهيم ، عليه السلام ، وتنقيتها مما شابها من شرك الجاهلية وبدعها ، على يد أولى الناس به ، محمد صلى الله عليه وسلم ، فما أن أذن في الناس في السنة العاشرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجٌّ ، حتى (قدم المدينة بشر كثير) رواه مسلم ، وفي رواية : (فلم يبق أحدٌ يقدر أن يأتي راكباً، أو راجلاً، إلا قدِم) رواه النسائي ، (كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعمل مثل عمله)

حرر في : ١٣/ ١١/ ١٤٢٨ هـ

رواه مسلم . ويصف جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، ذلك المشهد العجيب ، والموكب النبوي المهيب ، حين استوت به ناقته على البيداء ، بقوله : (فنظرت إلى مد بصري بين يديه ؛ من راكب، وماش، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملنا به) رواه مسلم

كما أنه صلى الله عليه وسلم ظل ينبه على هذا المعنى ، من المتابعة والانقياد ، فيقول : (لتأخذوا مناسككم ، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه) رواه مسلم

وقد فقه الصحابة هذا المعنى ، فلما قبَّل عمر، رضي الله عنه، الحجر الأسود، قال: (إني لأعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ، ما قبلتك) رواه الجماعة . قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله : (وفي قول عمر هذا، التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها. وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يفعله، ولو لم يعلم الحكمة فيه) فتح الباري: ٤٦٣/٣ . وقال عمر، رضي الله عنه، أيضاً : (ما لنا وللرَّمل ، إنما كنا راءينا به المشركين، وقد أهلكهم الله . ثم قال : شيء صنعه النبي صلى الله عليه وسلم فلا نحب أن نتركه) رواه البخاري . وفي رواية : (فيما الرَّملانُ الآن ، والكشف عن المناكب ، وقد أطَّى الله الإسلام ، ونفى الكفر وأهله ؟ ومع ذلك، لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

ولم يكن الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يسألون النبي صلى الله عليه وسلم، في المناسك ، ولا في غيرها ، أواجبٌ هذا أو سنةٌ؟ بل كانوا يعظمون سنته ، ولا يماكسون فيها ، ولا يتتبعون الرخص ، والشاذ من الفتاوى ، كما يصنع الناس اليوم . ويعملون بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم : (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) متفق عليه .

العقيدة والحج (٣)

(تعظيم شعائر الله وحرماته وإقامة ذكره)

قال تعالى في سياق آيات الحج: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) الحج:٣٠، ثم قال: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) الحج:٣٢ قال الشيخ عبد الرحمن السعدي، رحمه الله: (حرمات الله: كل ما له حرمةٌ، وأمر باحترامه من عبادة أو غيرها؛ كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها؛ فتعظيمها إجلالاً بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون ولا متكاسل ولا متثاقل) ثم قال: (المراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها: المناسك كلها؛ كما قال الله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)، ومنها: الهدايا والقربان للبيت ... ومنها: الهدايا؛ فتعظيمها باستحسانها، واستسمانها، وأن تكون مكمَّلة من كل وجه. فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب؛ فالمعظم لها يبرهن على تقواه، وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٠٩٨-١٠٩٩

إن هذا الحس الإيماني المرهف، الذي يستقرئ المعاني من وراء الصور والأعيان في مناسك الحج وشعائره، ينبغي أن يستصحبه المؤمن في سائر شعائر الله الزمانية والمكانية؛ فيعظم ما عظم الله، ويهون ما هون الله، ويقدم ما قدم الله، ويؤخر ما أخر الله، وتستقيم مشاعره مع شعائر الله

حرر في: ١٣/ ١١/ ١٤٢٨ هـ

،ويكون هواه تبعاً لما جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم. وكثير من الحجاج ينهمك في في أداء المناسك الظاهرة ؛ من طواف، وسعي، ورمي وغيرها، دون أن يصاحب ذلك تعظيم باطني لشعائر الله ، فلهذا يتشاغل برؤية الغادي والرائح ، ويبدو عليه الفتور والملل، ويبحث عن شواذ الرخص، بخلاف من عمر قلبه بجلالة الموقف، ولذة العبادة. وهذا ينسحب على بقية شرائع الدين .

إقامة ذكر الله

إن من أعظم مقاصد الحج ، وأهمها، إقامة ذكر الله . ويلحظ القارئ لآيات المناسك تكرار الأمر بذكر الله عقيب كل منسك ، قال تعالى :

(فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ .ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا) البقرة : ١٩٨-٢٠٠ ،

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ) البقرة : ٢٠٣ (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) الحج:٢٨ (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) الحج: ٣٤ (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) الحج : ٣٧ وقال صلى الله عليه وسلم : (إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار، لإقامة ذكر الله في الأرض) رواه الترمذي ، وقال : (أفضل الحج : العجُّ والثجُّ) ، وقال له جبريل عليه السلام : (كن عجاجاً ثجاجاً) رواه أحمد . والعجُّ : رفع الصوت بالتلبية ، والثجُّ : إهراق دم الهدي .

فينبغي لمن تلبس بهذه المناسك أن يستشعر هذا المعنى الجليل ، وأن يلهج لسانه بذكر الله ، وتكبيره ، واستغفاره ، ودعائه ، كما أمر ، فإن الله يحب أن يذكر اسمه . وكثير من الناس ينهمك في أداء المناسك ببدنه ، وقلبه غافل ، ولسانه عاطل .

كما ينبغي لمن أكرمه الله بإقامة ذكره في الحج أن يحفظ الدرس ، ويرجع ذاكراً، شاكراً، حامداً ، مهللاً، مكبراً ، لا يزال لسانه رطباً بذكر الله في جميع تقلباته ، وأحواله ؛ فالذكر جماع الخير ، ومنبع الفضائل ؛ فعن عبد الله بن بسر، رضي الله عنه، قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل ، فقال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فبابٌ نتمسك به جامع ؟ قال : (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

العقيدة والحج (٤)

(الولاء والبراء)

عجباً لهذا الدين العظيم ! كيف ينشئ في نفوس معتنقيه وحدةً فريدة، ولحمةً متينة، وانتماءً عميقاً، يتخطى الحواجز المكانية والزمانية، ويتسامى على الفروق العرقية والاجتماعية، ويتجاوز الخلافات السياسية والمادية، ويصهر التنوعات اللغوية والثقافية، لمختلف الشعوب والقبائل في نهر كبير مطرد، اسمه (الأمة الإسلامية) !

حين يلفظ العربي الفصيح، والأعجمي بلكنته : (لا إله إلا الله.محمد رسول الله) !

وحين تصطف صفوف الصلوات الخمس خلف إمام واحد، يصلون لرب واحد !

وحين يقتطع المسلم الغني زكاة ماله ليرفد بها إخوانه الفقراء في أصقاع الأرض !

وحين يمسك أكثر من مليار من البشر عن الأكل والشرب، في شهر واحد !

وحين تبعث كل أمة بوفدها إلى بلدٍ واحد، في شهرٍ واحد، لأداء نسكٍ واحد، على صعيد واحد، لباسهم واحد، يلبون لرب واحد، نبيهم واحد، وكتابهم واحد !

حين يفعلون ذلك ، يتجلى بشكل واضح أحد مقاصد الدين العظام ، ألا وهو تحقيق الموالاة بين المؤمنين ، وشعورهم برابطة الأخوة الإيمانية التي تجتاح جميع الروابط ، وتذيب جميع

حرر في : ٢٧ / ١١ / ١٤٢٨ هـ

الفوارق . قال تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) المائدة :٥٥- ٥٦، وقال : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) التوبة : ٧١. وهذه الموالاة تفرض حقوقاً وحرمات على أعضاء الجسد الواحد، ولبنات البنيان الواحد، جسدها النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة عرفات، وبين يديه مائة ألف أو يزيدون، حين قال : (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) رواه مسلم.

وبإزاء هذه الموالاة، ومن لازمها ومقتضاها : البراءة من الكفار على اختلاف أصنافهم ومللهم . وقد كان موسم الحج الميدان المناسب لإعلان تلك البراءة، زماناً ومكاناً، حيث أنزل الله تعالى صدر سورة براءة : (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) التوبة : ١-٣ . وعن أبي هريرة، رضي الله عنه ، قال : (بعثني أبو بكر، رضي الله عنه، تلك الحجة في المؤذنين، بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان) رواه البخاري

وقد تضمنت حجة النبي صلى الله عليه وسلم العديد من شواهد البراءة من المشركين، ومخالفة هديهم :

١- في التلبية : كانوا يقولون : (لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، ملكته وما ملك) فأهل بالتوحيد .

٢- الجواز إلى عرفة : مخالفةً لمشركي قريش الذين كانوا يقولون : نحن أهل حرم الله، فلا نخرج منه .

٣- الدفع من عرفة بعد مغيب الشمس، وذهاب الصفرة ، خلافاً للمشركين الذين كانوا يدفعون من عرفة حين تكون الشمس على رؤوس الجبال كالعمائم على رؤوس الرجال .

٤- الدفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس ، خلافاً للمشركين الذين كانوا يقولون : أشرق ثبير

كيما نغير ، لجبلٍ في المزدلفة تشرق عليه الشمس .

قال ابن القيم، رحمه الله : (استقرت الشريعة على قصد مخالفة المشركين، لا سيما في المناسك) تهذيب سنن أبي داود : ٣/٣٠٩

وقد قرر هذه البراءة من الجاهلية وأهلها في خطبة عرفة حين قال : (ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ... وربا الجاهلية موضوع...وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعد إن اعتصمتم به كتابَ الله) رواه مسلم.

إن الدرس العظيم الذي ينبغي أن يرجع به كل حاج أن يشعر أنه من أمة مصطفاة خُيِّرت على سائر الأمم ، وهُديت لأفضل السبل ، وأنْ ليس ثمَّ إلا إسلام أو جاهلية ، هدىً أو ضلالة ، حزب الله ، أو حزب الشيطان ، صبغة الله ، أو صبغة الذين لا يعلمون ! (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) البقرة : ١٣٨، (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) المائدة : ٥٠

وهذه الأمة، وإن بدت متخلفةً مادياً وعسكرياً ، بسبب تقصير أهلها بالأخذ بأسباب القوة والإعداد، إلا إنها تؤي إلى ركن شديد من العقائد، والشرائع، والأخلاق، ما أن يأذن الله بالفتح والفرج، حتى تعود لخيريتها، وتؤدي دورها الذي أكرمها الله به ، قال تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) آل عمران : ١١٠، فلا ينبغي للمؤمن أن يهون، ولا يحزن، مهما بلغ الحال من الهزيمة الظاهرية : (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) آل عمران : ١٣٩

وما أحرى الأمة، بجميع فئاتها وتخصصاتها، أن تتخذ من موسم الحج موسماً للتلاقي، والتباحث في مصالحها المختلفة؛ فتعقد المؤتمرات السياسية، والاقتصادية، والعلمية، والاجتماعية، في موسم الحج، ويتكرر ذلك كل عام، إذاً لانحلت مشكلات كثيرة، وتذللت صعاب جمة، وبدت الأمة أمام خصومها قويةً متماسكة .

العقيدة والحج (٥)

(منافع أخرى)

التقوى :

جميع شرائع الدين تهدف إلى تحقيق التقوى ؛ بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه . وآيات الحج ، بصفة خاصة ، مختتمة بالأمر بتقوى الله . قال تعالى :

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) البقرة: ١٩٦

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ...وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الأَلْبَابِ)

البقرة : ١٩٧.

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) البقرة : ٢٠٣

(لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) الحج : ٣٦

فهي تخاطب في الناسك خبيئة قلبه، وتستثير ورعه، ألا يرتكب محظوراً، ولا يفرط في هدي، أو فدية، أو كفارة، وألا يقع في رفثٍ، أو فسوقٍ، أو جدالٍ، أو إثمٍ في الحج. وإلى جانب ذلك تشعره أن جميع قرباته، مهما دقت، معلومة، محفوظة،

حرر في : ٥/ ١٢/ ١٤٢٨ هـ

مشكورة: ﴿ وَمَا تَفۡعَلُوا مِنۡ خَيۡرٍ يَعۡلَمۡهُ اللَّهُ ﴾ البقرة : ١٩٧

إن هذه الرقابة الذاتية الصارمة التي يلتزم بها الحاج أياماً معدودات، يمكن أن تتحول إلى منهج ، وسلوك مستديم ، يرجع به الحاج الموفق إلى وطنه ، وكأنما تنبه من غفلة ، أو استيقظ من رقاد .

حسن الخلق

الحج سفر، والسفر قطعة من عذاب . وفي الحج من بعد الشُّقة، وزيادة الكلفة، وحصول الازدحام، ما يتطلب مستوىً خلقياً رفيعاً، من الصبر والاحتمال، تدفع الضجر، وأريحية بالغة، تتسامى عن الأثرة، وتحمل على الإيثار، والصفح، ومجاهدةً وغالبةً للنفس الأمارة، تهزم الشهوات وحظوظ النفس . قال تعالى : ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ البقرة : ١٩٧. قال عطاء، رحمه الله: (الجدال : أن تجادل صاحبك حتى تغضبه و يغضبك)

ومن أجمل الأخلاق الاجتماعية : الرفق، وقد دفع النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة، فسمع وراءه زجراً شديداً، وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال : (أيها الناس : عليكم بالسكينة ؛ فإن البر ليس بالإيضاع) رواه البخاري .

ومن الأخلاق الكريمة : التواضع، وقد أردف النبي صلى الله عليه وسلم الفضل ابن عباس، رضي الله عنهما، لما دفع من المزدلفة ، وشرب زمزم من دلو يشرب منه سائر الناس . رواهما مسلم .

ومن مكارم الأخلاق حسن معاشرة الزوجة ؛ فحين حاضت عائشة، رضي الله عنها، ودخل عليها فوجدها تبكي، سلاها ، وعزاها، قائلاً (إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم) ، وحين ألحت أن تأتي بعمرة بعد الحج، قال : (اذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم) (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً سهلاً ، إذا هويت الشيء تابعها عليه) رواهما مسلم .

إن هذه الرحلة الشاقة ، والآداب الصارمة ، يمكن أن تؤسس لقيم خلقية ثابتة، يلتزمها الحاج بعد رجوعه ، ويتحلى بها في رحلة العمر كله ، بعد أن لمس آثارها، وجنى ثمارها، في تلك الأيام المعدودات .

التوبة والاستقامة

الحج حدث عظيم في حياة المسلم . يعلق عليه كثير من المسلمين آمالهم ، ويرونه مفرق طريق، وإيذاناً باستئناف حياة جديدة يستشرفون فيها المستقبل بتفاؤل وعزم على الاستقامة، وهجر لحياة التفريط والمعاصي . لا غرو! فالحج أحد المكفرات الكبار التي تجُبُّ ما قبلها ؛ فعن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، قال : لما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابسط يدك فلأبايعك . قال : فبسط، فقبضت يدي ! فقال : (مالك يا عمرو ؟) قلت : أشترط . قال : (تشترط ماذا ؟) قلت : أن يغفر لي . قال : (أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما قبله) رواه مسلم .

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، مرفوعاً : (من حج فلم يرفث، ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) متفق عليه . وفي هذا الحديث بشارة، وإشارة :

١- فالبشارة ظاهرة، وهي مغفرة السيئات ، فيرجع ابن تسعين ، إذا وفَّى بالشرط كابن ساعة ، لا خطيئة عليه ، صفحته بيضاء نقية !

٢- وأما الإشارة : فينبغي لمن حظي بهذه الكرامة أن يحافظ عليها، فلا يلطخ صحيفته البيضاء بسواد المعاصي. وقد فسر الحسن البصري، رحمه الله، الحج المبرور بقوله :(أن يرجع زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة) . وهذا من أعظم علامات القبول.

ابتغاء فضل الله بالتجارات

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال : كانت عكاظ، ومَجَنَّة، وذو المجاز، أسواق الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: (لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُوا فَضۡلاً مِن رَّبِّكُمۡ) رواه البخاري . وعن أبي صالح، مولى عمر، رضي الله عنه، قال : قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون في الحج؟ قال : وهل كانت معايشهم إلا في الحج ؟

إن موسم الحج فرصة لالتقاء مختلف الشعوب الإسلامية لتحقيق منافع

مشتركة، ومصالح متبادلة، ومنها المنافع التجارية، والمصالح الاقتصادية، دون أن يغض ذلك من قدر النسك ؛ فقد رفع الله الجناح عن الأمة في مزاولة هذه المناشط الحيوية التي تعود عليها بالقوة والخير . ولو أحسن المسلمون اليوم استغلال هذا الموسم من هذا الجانب، لأمكن أن يؤسس لما يسمى (السوق الإسلامية المشتركة) من خلال عرض منتجاتهم، وإبرام العقود والاتفاقيات التجارية ، ويحققوا فيما بينهم الاكتفاء الذاتي، ويستغنوا ، أو يكادوا، عن الابتزاز العالمي المذل .

العقيدة والنسيكة

إن للنسك (الذبح) في كتاب الله شأناً وذكراً، وكذا في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً. وما ذاك إلا لكونه من أعظم مظاهر العبودية، فإن الدم يقع من الله بمكان. والتقرب إليه سبحانه بالذبح، والنحر، له صورٌ متعددة: الأضحية، والهدي، والعقيقة، والفدية.

وقد اقترنت النسيكة بموقف من أعظم مواقف الإيمان، وهو ابتلاء الله لخليله إبراهيم، عليه السلام، بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، وخلَّد الله هذه الواقعة بآيات تعجز ألسنة الفصحاء عن الإتيان بمثلها، قال تعالى: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)

الصافات/١٠١-١٠٧

وبقي هذا النسك العظيم، من ملة إبراهيم، في دين محمد صلى الله عليه وسلم،

حرر في: ٣٠/ ١١/ ١٤٢٩ هـ

شعيرةً إيمانيةً، تتوارثها أجيال المسلمين، وتعلن بها توحيدها لرب العالمين. قال تعالى في عموم النسك: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأنعام/١٦٢، وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ الكوثر/٢، وقال في خصوص الحج ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ الحج/٢٨، وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ الحج/٣٤-٣٧. ويؤخذ من هذه النصوص الفوائد التالية:

١- عظم شأن النسك، وأنه قسيم الصلاة، ورديفها في الذكر.

٢- أنها مظهر لإقامة ذكر الله، وشكره، وتكبيره.

٣- أنها مشعر أممي مقترن بتوحيد الله، والإسلام له والإخبات.

٤- أنها تورث التقوى.

ولهذه الخصائص العظيمة اعتنى بها معلم الناس الخير، صلى الله عليه وسلم، فقد روى عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: (أقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة عشر سنين يضحي) رواه أحمد والترمذي، وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: (ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين ذبحهما بيده، وسمى، وكبر، وضع رجله على صفاحهما) متفق عليه.

إن استشعار عظم هذه الشعيرة، وتذوق معانيها، وتأمل حكمتها، لتكشف للمؤمن عن الصلة الوثيقة بين العقيدة والنسيكة، فلا تكون مجرد (إزهاق روح) أو (إسالة دماء) أو (أكل لحم) بل تعبد، وتنسك، وتعظيم، وتكبير، وذكر، وشكر، وتقوى. تقبل الله ضحاياكم، وهداياكم، وأعاضكم التقوى.

العقيدة والذكر

إن المتأمل في نصوص الوحيين يلحظ العناية الفائقة، والوصية المستمرة بذكر الله تعالى؛ كثرةً في النصوص، وتنوعاً في الأسلوب، ووفرة في الثواب! ولو ذهبنا نسوق الشواهد لطال بنا المقام. وننتخب منها:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) العنكبوت/٤٥، (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) البقرة/١٥٢، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) الأحزاب/٤١، ٤٢

وقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى) رواه الترمذي.

فما سر هذه العناية والحفاوة والتحضيض؟

ولماذا نشر الشارع الحكيم أزهار الأذكار على صفحة الليل والنهار؟

سر ذلك هو الارتباط الوثيق، والاتصال العميق بين (العقيدة) و (الذكر). ويتضح ذلك من وجوه متعددة:

حرر في: ٢٦/ ٤/ ١٤٢٨هـ

أولاً : أن (قول اللسان) جزء مسمى الإيمان، الذي له حقيقة مركبة من : (قول اللسان، واعتقاد الجنان، وعمل الأركان) . والذكر يتضمن قول اللسان، الذي هو الاستعلان بالشهادتين،وعمل اللسان المتضمن للتسبيح، والتحميد، والتكبير، والدعاء.

ثانياً : أن الذكر تأكيد لمفردات العقيدة، واستحياء لها في النفس الغافلة، واستحثاث لها في الهمم الغافلة. ولا ريب أن إدمان ذكر الشيء سبب لرسوخه، وحضوره.

ثالثاً : أنه سبب لتحقيق مقام (المحبة) التي هي أشرف العبادات القلبية . قال ابن القيم، رحمه الله : (أنه يورثه المحبة، التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة. وقد جعل الله لكل شيء سبباً، وجعل سبب المحبة دوام الذكر. فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل، فليلهج بذكره، فإنه الدرس والمذاكرة. كما أنه باب العلم؛ فالذكر باب المحبة، وشارعها الأعظم، وصراطها الأقوم) الوابل الصيب.

رابعاً : أنه سبب للوصول إلى مرتبة الإحسان، التي هي أعلى مراتب الدين. قال ابن القيم، رحمه الله: (أنه يورثه المراقبة، حتى يدخله في باب الإحسان؛ فيعبد الله كأنه يراه. ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت) الوابل الصيب.

خامساً : أنه وقاية وصيانة من الشبهات الشيطانية التي تقدح في العقيدة، وتفسد صفاء القلب؛ فالذكر حرز إيماني من كل هجوم شيطاني . جاء في حديث الحارث الأشعري، رضي الله عنه، الطويل ، مرفوعاً :(وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ) رواه الترمذي.

فلا غرو، بعد ذلك، أن يكون (الذكر) من أخص صفات الصالحين، وشعارهم. وسيد الذاكرين، محمد صلى الله عليه وسلم ،كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ أَوِ الْغَدَاةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَامَ. وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ . رواه مسلم .

وعلى هذا السنن جرى الموفقون من أئمة الدين، وحراس العقيدة، فقد حكى ابن القيم، رحمه الله عن شيخه، ابن تيمية، رحمه الله، وحسبك به ناصراً للملة، وسداً في وجوه أهل البدعة ، قال : (حضرت شيخ الإسلام، ابن تيمية، مرة، صلى الفجر، ثم جلس

يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال : هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي. أو كلاماً قريبا من هذا. وقال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي، وإراحتها، لأستعد بتلك الراحة لذكرٍ آخر. أو كلاماً هذا معناه.

وبذلك يتبين أن (الذكر) غذاء،ودواءٌ،وشفاء،لأهل الإيمان؛ فمن خلاله يوثقون صلتهم بمعبودهم،ويحيون قلوبهم بمعاني العبودية، وينفون عنها طائف الشيطان. والله المستعان.

العقيدة والمجتمع

العقيدة والمجتمع

حين يصطبغ المؤمن بصبغة الله، يورثه ذلك انجذاباً طبيعياً إلى شاكلته، وميلاً عميقاً إلى شركائه في الإيمان؛ فيحمله ذلك على (الهجرة) إليهم إن كان بعيداً عنهم، وانتماءً إليهم، وانغماساً فيهم، إن كان بين ظهرانيهم . فيشعر المؤمن بالأخوة الإيمانية في قلبه ، كما وصف تعالى : (فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) الأنفال :٦٢- ٦٣، وقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) الحجرات :١٠. وقد ضرب المؤمنون الأوائل أروع الأمثلة، عند بناء المجتمع الإسلامي الأول، في المدينة، حتى قيل: (ما نزل مهاجرٌ على أنصاري إلا بقرعة) . والعجب أن هذه الأخوة الإيمانية لا تنفصم عراها، ولا تنحل عقدتها، حتى لو استزل الشيطان أحد أفرادها فقتل أخاه ! قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) البقرة : ١٧٨ ، فسمى القاتل أخاً للمقتول!

حرر في : ٢٥ / ٣ / ١٤٢٨ هـ

وتثمر هذه الأخوة القلبية أداءً اجتماعياً فريداً، لا يقوم على روح التنافس، والتجاذب، والتنافر، بل على التعاون، والتناصح، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ المائدة: ٢، كما تكسب أفرادها رعايةً للحرمات، وصيانةً للعلاقات، قال صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. التقوى ههنا ! التقوى ههنا ! التقوى ههنا ! ويشير إلى صدره. بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه، وعرضه، وماله) رواه مسلم وغيره.

إن تنمية الباعث العقدي، والروح الإيماني، أعظم ضمانات المجتمع الإسلامي، وأقوى أسباب تماسكه ووحدته؛ فهو يصهر الشعوب، والقبائل، والأعراق، واللغات، في رحاب المجتمع الواحد، الذي يعبد الإله الواحد، ويتبع النبي الواحد، ويؤمن بالكتاب الواحد، ويسمع، ويطيع للإمام الواحد، على قلب رجل واحد.

وحين يستقر هذا الاعتقاد، وتسود هذه الثقافة المجتمعية الإيمانية، تتلاشى صور التحزبات الباطلة التي تفصم عرى المجتمع، وتنتفي التصنيفات المحدثة التي تقطع أوصاله، ويبدو الجميع أمةً واحدة، على مراتب متفاوتة في سلم الإيمان والعمل، لكن يسعهم اسم الإيمان، وإن تفاضلوا فيه.

وحين ينظر المرء إلى العقد الاجتماعي الذي يربط الأمم الأخرى يدرك ضحالة غوره، وهشاشة بنائه المؤسس على روابط نفعية دنيوية، أو عصبيات قومية، قابلة للكسر. وحين يتأمل أرقى صور الأداء لتسيير المجتمع والأمة متمثلةً في (الديموقراطية) الغربية، يبصر ما تفرزه من مشاحنات، ومكائد، ودسائس، وضغائن، وتصفية حسابات للغالب على المغلوب، فيما يسمى بالدولة المدنية الحديثة !

إن العقيدة الصحيحة تبني المجتمع الإسلامي بناءً متيناً، متماسكاً، مشدوداً كالبنيان: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) ثم شبك بين أصابعه. متفق عليه. فما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى إحياء مكنون العقيدة، وما أغناها عن طرائق اليهود والنصارى والذين لا يعلمون. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

العقيدة والأسرة (١)

(الأسرة) نواة المجتمع، وملتقى الزوجين؛ الذكر، والأنثى، ومحضن الأولاد. وقد عني بها الشرع الحنيف أيما عناية، وفصل في أحكام النكاح؛ من خطبة، وعقد، وشروط، ووليمة، وعشرة، ونفقة . كما عني بأحكام الفراق؛ من طلاق، وخلع، وفسخ، ولعان، وعدد، بتفصيلات مبسوطة في كتب الفقه . إلا إننا في حديثنا هذا، نسلط الضوء على ارتباط العقيدة بهذا العقد الكريم .

فأول بادرة: أن الله جعل العلاقة بين الزوجين آيةً للتفكر والاعتبار، فقال: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون) الروم : ٢١. فالنساء شقائق الرجال، بل إن المرأة خلقت من الرجل، كما قال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) النساء: ١.

وهذا تأسيس كريم، رفيع، لطبيعة العلاقة بين الزوجين، ينفي انحرافين خطيرين : أحدهما : النظرة الازدرائية للمرأة، واعتبارها (نجساً) أو (شيطاناً) كما كانت

حرر في : ٢٠ / ٧ / ١٤٢٨ هـ

تضخه النصرانية المحرفة، وتدعو إلى التبتل، والرهبنة، ونبذ المرأة .

الثاني : النظرة الحيوانية البهيمية، التي لا ترى في المرأة إلا (قضاء وطر)و(متعة جسد) و(شهوة مجردة) من جميع القيم الإنسانية .

فيرى المؤمن في زوجه، وشريك عمره : (سكناً) و محلاً لـ (المودة) و (الرحمة) .

و(عقد النكاح) الذي يؤذن بابتداء الحياة الأسرية، عقد شرعي موثق بكلمة الله، مؤمَّن بأمانة الله، كما أعلن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في (الإعلان النبوي لحقوق الإنسان) يوم عرفة، في حجة الوداع، وبين يديه مائة ألف أو يزيدون، فقال في خطبته: (واستوصوا بالنساء! فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله) رواه مسلم . فياله من عقد رباني، وأمان إلاهي يوجب على الزوج الرعاية التامة، والوفاء بمقتضى العقد؛ من غير مَنٍّ، ولا أذى .

ثم إذا عرض للحياة الزوجية عارض من كراهة وانقباض من قبل الزوج، يقرع سمعه ، ويلفت نظره، تنبيه لطيف، يلامس أعماق القلب، وأغوار العقل : (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) النساء: ١٩، فيطمئن لوعد الله، ويركن إلى الصبر والأمل، فسرعان ما يحمد العاقبة،ويسلم البيت.

وحين يبدر من المرأة نشوز وترفع على زوجها، يأمر القرآن الزوج العاقل بعلاجها علاجاً مترفقاً، متدرجاً، يبدأ فيه بموحيات العقيدة؛ وهي الموعظة، فيقول: (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن) ولكنه لا يدعه يتمادى، فتلك وسائل لا مقاصد، فإذا حصل المطلوب فليتق الله، ولا يظلم من رجعت إلى الطاعة، ولا يبغ عليها بأي صورة من الصور، فلها من يحميها، وهو (العلي) (الكبير) سبحانه : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً) النساء: ٣٤، فحينئذ ترتجف فرائص الزوج التقي لختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، فيمتنع من ظلمها .

وهكذا تكتنف (العقيدة) (الأسرة) في تكوينها، وفي استمرارها، إن شاء الله، جوانب أخر . والله الموفق .

العقيدة والأسرة (٢)

إذا تفاقمت الأمور، ووقع المحذور، وأطلق الزوج لفظ الطلاق. وذلك واقع في حياة البشر، ومتوقع، لأسباب عدة، فلا مناص حينئذ، من الفراق.

والعقيدة تؤطر الحياة الزوجية بإطار واضح كريم هو (المعروف)، كما قال تعالى: (وعاشروهن بالمعروف) النساء: ١٩، أي بالصحبة الجميلة، وبذل الندى، وكف الأذى. فإن جرى كسر هذا الإطار، فلا يسوغ الاستمرار في (المنكر) بل لا بد من (التسريح بإحسان)، وفي لفظ التسريح ما يدل على السلاسة، والصون، والستر، دونما ضجيج، أو فجور في خصومة. وليس ثمَّ خيار ثالث؛ قال تعالى: (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) البقرة: ٢٢٩، فلا تجوز (المضارة) بأي صورة من الصور؛ من تعليقها، أو إيذائها بقول، أو فعل، أو ابتزازها. وتلك ممارسات خفية، يتمكن الحقود، اللئيم من تعذيب مطلقته بها، كأن يطلقها، فكلما شارفت عدتها على الانقضاء راجعها، ليطول عليها المدة، ويؤذيها. لكن التحذير القرآني الرهيب يردع المؤمن عن تلك الممارسات؛ ويذكر بنعمة الله التي فرقت بين حياة الجاهلية والإسلام. قال تعالى: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن، فأمسكوهن بمعروف،

حرر في: ٢٧ / ٧ / ١٤٢٨ هـ

أو سرحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم) البقرة: ٢٣١

وإبَّان العدة الرجعية، يحد الله حداً للزوجين المختصمين، فيلزمهما بالمكث سوياً، ويحيط تطبيق ذلك بالضمانات الإيمانية المستمدة من عقيدة الزوجين، القائمة على تعظيم الرب، وتقواه، والثقة بحكمته، وحسن قضائه ؛ قال تعالى : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) الطلاق: ١

والطلاق لا يهدر حقاً محفوظاً للمرأة؛ من استرجاع صداق، أو جحد باقيه؛ قال تعالى: (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) البقرة : ٢٢٩، وقال : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً. وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) النساء: ١٩-٢٠، وقال صلى الله عليه وسلم : (إن أحق الشروط أن توفوا به، ما استحللتم به الفروج) متفق عليه .

وحين لا يريد الزوج فراق زوجته، لا مضارةً بها، ولكن حاجةً إليها، وعدم قدرة على مؤنة سواها، أو غير ذلك، وتريد هي فراقه لسببٍ لا تملك دفعه، كبغضٍ نفسي، أو دمامة خَلْق، أو فظاظة خُلُق، أو غير ذلك مما به بأس، فقد أباح الله لها أن تفتدي نفسها من هذا (الأسر) الذي لم يعد (أسرة)؛ قال تعالى : (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) البقرة : ٢٢٩. وهكذا نرى (حدود الله) معالم بارزة، وإشارات تحذيرية في طريق الحياة الزوجية، في حال الوفاق، والفراق .

وحتى في أشد صور الفراق مأساوية، وهي (اللعان)، الذي يجري بسبب رمي الزوج زوجته بالزنا، يُستدعى مخزون العقيدة، لاستجلاء الحقيقة، وتحميل الزوجين مسؤولية ما بدر منهما، من قذف، أو فجور، قال تعالى : (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن

لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) النور: ٦-٩ . **فيالها من روادع وزواجر، لا تملك أحكم النظم الأرضية اصطناع مثل تأثيرها، لكونه يلامس عقيدة القلب، الذي يخاف من لعنة الله، وغضبه.**

العقيدة والأسرة (٣)

للأسرة وجه آخر سوى العلاقة الزوجية بين الذكر والأنثى . تلكم هي (الذرية) من بنين وبنات . قال تعالى : (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) النحل: ٧٢. فالذرية الطيبة زينة الحياة (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) الكهف: ٤٦، والاستيلاد مطلب فطري، لأنه امتداد الحياة، وإرث الإنسان. وقد طلب الولد أنبياء الله، عليهم السلام : (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) آل عمران: ٣٨، وقال : (فهب لي من لدنك وليا. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) مريم : ٥-٦

إن اتصال (العقيدة) بالذرية يبتدئ منذ اللحظة الأولى التي تتشوف النفس الإنسانية إلى حصول الولد، فيدرك الأبوان أن الأمر بيد (الوهاب) . قال تعالى: (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير) الشورى: ٤٩-٥٠

فإذا ما تمت الأمنية الأولى تاقت النفس إلى أعلى من ذلك؛ وهو (صلاح الذرية) وأيقنت أن ذلك بيد الله، فسألته (ذريةً طيبة) وأن يجعله (صالحاً) في خُلُقه، وخِلْقته.

حرر في : ١١/ ٨/ ١٤٢٨ هـ

قال تعالى: (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) الأعراف: ١٨٩.

وفي مشهد ختامي أخير، يقف العاقل الرشيد وقفة تبصر، وينظر نظر فاحص إلى الوراء، بعد اكتمال قواه العقلية، والبدنية، متأملاً: (حتى إذا بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين) الأحقاف: ١٥.

وهكذا يرى الإنسان أن مشروع العمر، وسيرة الحياة، لا تكتمل إلا بربط السابق (الوالدين) باللاحق (الذرية) ويمسك طرفيها مغتبطاً بنعمة الله عليه، ضارعاً إليه أن يوزعه الشكر، ويرزقه العمل الصالح، والتوبة النصوح .

وهكذا تؤطر (العقيدة) قضية (الذرية) وتجعلها بين (قوسين) . وبين مشهد الدعاء بحصولها، ومشهد الدعاء بصلاحها، تدور رحى (التربية) ومعاناة (التأديب) . ويجعل الله تعالى ذلك منوطاً بالوالدين، ويقرنه بأصول الإيمان، وأسس العقيدة. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) التحريم: ٦، وقال صلى الله عليه وسلم : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا) متفق عليه، وقال: (مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ) رواه الترمذي وأحمد.

والعقيدة الحقة تطالب المربي بالشرع، وتعفيه من القدر! فالأقدار بيد الله، والقلوب بين أصبعين من أصابعه، يقلبها كيف يشاء! فعلى المؤمن أن يوطن نفسه على الرضا بالمقسوم، وحسن الظن بالعليم الحكيم، سيما في هذه المسألة الحساسة التي تلامس حبات القلوب : (ونادى نوح ربه فقال إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) هود: ٤٥-٤٦، فربما كانت (الذرية) ، رغم استفراغ الوسع، وبذل الجهد (عمل غير صالح) ! كمن قال الله عنه : (والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي، وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول

ما هذا إلا أساطير الأولين) الأحقاف: ١٧ ، وربما كانت (الذرية) قرة عين للوالدين، وسبباً لاستمرار عملهما الصالح، قال صلى الله عليه وسلم: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاث؛ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ) رواه الترمذي والنسائي.

وما أجمل العاقبة، وأعظم المنة، عند الاجتماع بالذرية في الجنة، قال تعالى: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) الطور: ٢١

العقيدة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١)

لعل أجلى مظاهر العقيدة في الحياة : الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر . وسر ذلك أن العقيدة الحقة تثمر عملاً صحيحاً، وقولاً حميداً، وأدباً راقياً . وهذه الثمرات والمقتضَيات ضرورة الإيمان الصادق، لا تنفك عنه، مع تفاضل بين المؤمنين في مقدارها. ولكن قد تظل هذا الآثار مقصورة على صاحبها، فإذا ما تنامت شجرة الإيمان، وساخت جذورها في أرض القلب، وتمكنت منه، استرسلت أغصانها، وامتدت، فاستظل بظلالها الوارفة من حولها! وكذا الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، لما فاض ما في قلبه عن حد حاجته الشخصية، سقى غيره بالعلم النافع، المتمثل بالأمر والنهي، فأثمر العمل الصالح .

ولما كانت هذه الشعيرة العظيمة (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر) أصدق تعبير عن الإيمان بالله، والنصح له، ولكتابه، ولرسوله، والولاء التام لدينه، قرنها بالإيمان، وتوَّج بها هذه الأمة، وجعلها عنوان خيريتها على سائر الأمم، فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) آل عمران : ١١٠

حرر في : ٢٩ / ٥ / ١٤٢٩ هـ

والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أعظم أسباب بقاء هذا الدين، وسلامة مجتمعاته؛ من جهة البناء والإنشاء، ومن جهة الحفظ والصيانه . فهذه الشعيرة العظيمة تمثل إصلاحاً ذاتياً، واحتكاماً مرجعياً مستمراً إلى الأصل المعصوم؛ الكتاب والسنة .

وأما أهلها؛ الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، فقد حازوا أعلى الرتب، والمناقب ، والفضائل. فمن ذلك :

١- أنهم أهل الفلاح، والمشروع الناجح. قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون) آل عمران : ١٠٤، ومعنى الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب .

٢- أنهم أهل النجاة، والبقية المختارة، كما قال تعالى : (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم) هود: ١١٦، وقال: (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) الأعراف: ١٦٥

٣- أنهم حراس الشريعة، الحافظون لحدود الله، كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم، بمثالٍ بديع، فقال : (مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها. فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم. فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) رواه البخاري . فهم عصمة للأمة، وأمنة للمجتمع، بعد الله عز وجل .

٤- أنهم من أهل المجاهدة والإحسان اللذين يورثان الاهتداء والمعية الربانية، قال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) العنكبوت: ٦٩ .

تلك بعض السمات، لأثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة، مما يؤكد ما استهللنا به الحديث من الصلة الوثيقة، والعلاقة الحميمة، بين العقيدة، وهذه الشعيرة الفعالة في جميع شؤون الحياة ، والله المستعان .

العقيدة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢)

المتأمل في حال الأمة في العقود الأخيرة، يدرك بشكل جلي أن المشتغلين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقفون على الخط الساخن، ويرابطون في الجبهة الملتهبة، ويحمون الثغور، ويسدون منافذ التغريب، والعلمنة، والاستزلال، التي تهجم ليل نهار على ديار المسلمين .

وفي المجتمع أطباق من أهل الخير والفضل؛ مثل :

١- طلبة العلم المشتغلون بتدريس الفنون الشرعية المختلفة .

٢- الدعاة المعنيون بموعظة الناس وتذكيرهم .

٣- المحسنون الساعون على الأرامل واليتامى والمساكين .

٤- العُبَّاد ذوو النهمة في العبادات الخاصة؛ من صوم وصلاة وذكر .

إلا إن هؤلاء جميعاً، يقفون في خطوط خلفية، ويتقون بإخوانهم المحتسبين، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الحاملين عنهم أثقل فروض الكفايات .

وبإزاء هؤلاء الأخيار جميعاً، يصطف نفرٌ من الكارهين لما أنزل الله، المتبعين ما

حرر في : ٧ / ٦ / ١٤٢٨ هـ

أسخطه، ويجدون وُجاههم في الخط الأول (أهل الحسبة) يحولون بينهم وبين ما يشتهون، ويقطعون الطريق على مشاريعهم العلمانية .وهؤلاء الخصوم صنفان :

الصنف الأول : أصحاب الشهوات : الذين أتبعوا أنفسهم هواها، واستأسروا للغرائز البهيمية، والمتع المادية. دون ضابط، أو رادع . وقد وفَّرت لهم الآلة الإعلامية الهائلة ألواناً من الشهوات، وسهلت لهم وسائل النقل الحديث دروباً مظلمةً مريبة .

الصنف الثاني : أصحاب الشبهات : وهم فريق أبى أن يهتدي بهدى الله، وأشرب محبة الزائغين من اليهود والنصارى والذين لا يعلمون من الوثنيين والملحدين، ورأى فيهم الصورة المثلى لممارسة الحياة على نحو أفضل ، وأُعجب بمنظوماتهم الفكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفنية ، وأصبح يسرِّع الخطا نحو العلمانية، بمفهومها الدقيق : إقصاء الدين عن شؤون الدنيا، وقصر الممارسات الدينية على السلوك الشخصي في أحسن الأحوال ، وسعى حثيثاً إلى التماهي مع المجتمعات الغربية الشاردة عن الدين .

وهؤلاء، وهؤلاء، اصطدموا بسد منيع، وارتطموا ببنيان مرصوص، هم القائمون بحدود الله، الحافظون لها ، فرموهم عن قوسٍ واحدة، وصاروا يكيلون لهم التهم جزافاً، ويغرون بهم أصحاب الأقلام، ويستعدون عليهم ذوي السلطان ؛ (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) غافر: ٥٦.

ولا ريب أن الصنف الأول، أهل الشهوات، يتميز غيظاً حين يحول الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر دون وصول آلاف الأرطال من السكرات إلى أجواف الفساق، أو حين تصادر ملايين (الحبوب) من المخدرات، قبل أن تعيث بالعقول قبل الجيوب، أو حين تداهم بيوت الدعارة، ويقبض على بائعات الزنا ، قبل نشرهن للرذيلة والأمراض الفتاكة ، أو حين يعتقل السحرة والمشعوذون قبل أن يرسلوا شياطينهم للعدوان والفساد ، (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً) النساء:٢٧

ولا ريب أن الصنف الثاني، أهل الشبهات، تذهب أنفسهم المستكبرة حسرات، حين يرون أعلام السنة منشورة، ومعالم الشريعة مشهورة، ويتمنون اليوم الذي يتم فيه القضاء على القضاء، والافتيات على الإفتاء، والدعوة إلى تقزيم الدعوة، وسبيل ذلك الهجوم على الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، وتلقط زلاتهم، ثم المناداة بإلغاء الجهاز المنظم لأعمالهم، زاعمين، أن ثم فرقاً بين نقد الجهاز، ونقد الشعيرة ! فأي نقدٍ ذاك الذي يفضي

إلى إلغاء الشعيرة عملياً .

إن هذا الصنف، أخطر الصنفين، وشر الفريقين، وهو طليعة الغزاة، وربيئة العدو، والوريث بجدارة للقب (المنافقين) . والاحتساب عليهم أهم المهمات، وأولى الأولويات. على أنه جدير بالذكر، أن من الناس من قد يلتاث بلوثة من أفكار هؤلاء أهل العلمنة الصرف، وليس منهم ! وإنما غشى بصره بريق خادع، وبرق خلَّب، أو أسكَّ سمعه صخبٌ وضجيج من بعض الفتانين، فحقه أن يهادن، ويترفق به، حتى يبصر الأمور على حقيقتها، ولا يستعدى فيتخطفه الخصوم . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

العقيدة والأمن الاجتماعي
(الإيمان قيد الفتك)

إن من صور التلاحم بين العقيدة والحياة، صون العقيدة لحرمة الحياة، وتعظيمها للدماء، وتشنيعها للقتل والإفناء . كيف لا ! والحياة هبة من الله لمن شاء أن يستخلفه في أرضه، ويستعمره فيها، ليعبده وحده، ويتبع هداه .

ومن هنا، كان الاستخفاف بالدماء، وإزهاق الأرواح بغير حق، خرقٌ واضح لحكمة الخلق، وتفويت لمقاصد الشريعة، وعدوان على الإنسان .

وقد جرى في غضون الأسبوع المنصرم، جريمة نكراء، اهتزت لها قلوب الآدميين عامة، والمؤمنين خاصة، حين هاجم شخصان مجهولان رفقةً من المسافرين الفرنسيين، في طريق صحراوي، فأرديا أربعةً من الرجال قتلى، يتشحطون في دمائهم بين نسائهم وأطفالهم ! ثم يتبين أن المغدورين مسلمون متجهون للصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، مواصلون لأداء العمرة، والصلاة في بيت الله الحرام !!

لقد كانت صدمةً هائلةً للنفوس السوية، ذات العقيدة النقية، وهي ترى جنائز هؤلاء الرجال القادمين من بلادٍ غير إسلامية، تزهق أرواحهم بدم بارد، قرب آمَنِ البقاع،

حرر في : ١٢/ ٢/ ١٤٢٨ هـ

وأعظمها حرمةً عند الله تعالى، وتتسائل : بأي ذنب قتلت، وبأي مسوغ أعوج أهدرت ؟! وأياً كانت الدوافع، فلا نستبق التحقيقات، فإن التوصيف الشرعي لهذه الجريمة النكراء، أنها (قتل عمد) ، و(حرابة) و (قطع طريق) . قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ فرتَّب سبحانه على هذه الجريمة خمس عقوبات رهيبة ؛ جهنم، والخلود فيها، وحلول الغضب عليه، واللعنة، والعذاب العظيم .

إن العقيدة الصحيحة تنشئ في نفس معتنقها حرجاً بالغاً، وحرمةً جليلة للدماء. ففي الحديث الصحيح: (لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) رواه البخاري. وقال: (لا يزال المؤمن معنقا صالحا ما لم يصب دما حراما فإذا أصاب دما حراما بلح) رواه أبو داود. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها، سفك الدم الحرام بغير حل). وقد أرسى النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة الأمن الاجتماعي، بجميع صوره، في خطبة حجة الوداع، في يوم عرفة، وبين يديه مائة ألف أو يزيدون، في إعلان عالمي إيماني لحقوق الإنسان، حين قال : (إن دماءكم، وأموالكم، حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة) رواه مسلم.

بل إن العقيدة الصحيحة لتعطي الحياة ضمانات أعلى من مجرد ضرورة حفظ النفس، فتجرِّم التهديد، ولو بمجرد الإشارة ؛ فعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من حمل علينا السلاح فليس منا) رواه البخاري. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار) رواه البخاري. قال ابن العربي: (إذا استحق الذي يشير بالحديدة اللعن، فكيف الذي يصيب بها؟) فتح الباري:١٣/٣٢، وتحرِّم الأذى الجسدي، ولو كان مجرد خدش؛ فعن جابر أن رجلاً مرَّ في المسجد بأسهم قد بدا نصولها، فأمر أن يأخذ بنصولها، لا يخدش مسلما. رواه البخاري. وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا مر أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا، ومعه نبل، فليمسك على نصالها، أو قال: فليقبض بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء) رواه البخاري. بل ترتقي العقيدة في رعايتها لحرمة المؤمن، إلى تحقيق الأمن النفسي للأفراد، فضلاً عن سائر المجتمع؛ ففي

الحديث: (لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً) رواه أبو داود .

ثم إن العقيدة الحقَّة، التي ترعى حرمة الحياة المستحقَّة، تمد رواقها الآمن، لتضفيه على من أوى إلى دار الإسلام، ومُنح عهدهم وذمتهم. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) وقال صلى الله عليه وسلم : (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة) رواه البخاري.وقال:(إني لا أخيس بالعهد،ولا أحبس البرد) رواه أبو داود والنسائي وقال : (الإيمان قيد الفتك ؛ لا يفتك مؤمن) رواه أبو داود .

العقيدة والإجازة

(كل الناس يغدو)

روى الإمام مسلم، والترمذي، والنسائي، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) .

كان ذلك تصويراً نبوياً رائعاً للنشاط الإنساني، وخلاصته . الناس ، كل الناس، يسعون في هذه الحياة، ويكدون، ويكدحون، على أنحاء متنوعة، قال تعالى : (إن سعيكم لشتى) الليل : ٤. وهذا النشاط جزء من كينونتهم، لا انفكاك لهم عنه، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام) رواه أبو داود . فابن آدم حارث بطبعه، همام بطبعه . والحرث أعم من أن يراد به حرث الأرض، فهو بمعنى الكسب. والهم يتناول كل ما تنزع إليه النفس نزوعاً مستقراً، فهو بمعنى الإرادة . ولذا كانا أصدق الأسماء؛ لأن الإنسان لا يخلو من هم، وكسب، وحياته من سعي، وغدو، ورواح .

فمن استنار بنور الله، واتبع هداه، حمد العاقبة، وأعتق نفسه ومن تنكب الطريق،

حرر في : ٢١ / ٦ / ١٤٢٨ هـ

وأعرض عن ذكر الله باء بإثمه، وأوبق نفسه. قال تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى)

الليل: ٤-١٠

وفي الإجازة الصيفية ، تجري حركة دائبة في أوساط الناس؛ غدواً ورواحاً، جيئةً وذهاباً، تنزعهم نزعات شتى، هي مثار تأمل واستبصار !

- فبينا ترى رجالاً، ونساءً يغذون السير، وينتهبون الخطى، لزيارة بيت الله الحرام، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، في شوقٍ بالغ، وهوى مضطرم ! تجد آخرين يقذفون بأنفسهم وأهليهم في بلاد الخنا، ومواطن الريبة ! وسبحان الله !

- وبينا شباب يلاحقون الدورات الشرعية، ويرحلون في طلب العلم ، ترى أقرانهم ونظراءهم من الشباب يترنحون في الحانات، ويتدنسون مع المومسات . وسبحان الله !

- وبينا أفراد ينتهزون الفرصة لطلب الرزق، وتحصيل المعاش، إذا بمترفين يهدرون الأموال الطائلة بغير حساب ! وسبحان الله .

إن خلف هذه التصرفات الحياتية (عقيدة) محركة، باعثة، دافعة . فحين تكون تلكم العقيدة صحيحة ، تثمر حركة صالحة . وحين تكون باطلة ، فإنها تنتج جنسها . وحين تكون عقيدة (مغيَّبة) وإن شئت فقل : (معلَّبة) ، تقع الازدواجية في السلوك . فما أحرى العاقل أن يكون على بينة من أمره، يبصر ما يأتي وما يذر، فما الليل والنهار سوى (خزانتين) نلقي فيهما مكتسباتنا، لتصبح مدخراتنا، فإذا كان يوم القيامة فتحناهما، فوجدنا ما أسلفنا من خير أو شر. قال تعالى :(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد)

آل عمران: ٣٠

العقيدة والأفراح

تعيش المجتمعات الإسلامية، بصورة عامة، مع إقبال الإجازة الصيفية، حالةً من الأفراح المتنوعة،على الصعيد الشعبي، دعك من الحالة المأساوية العامة للأمة، تتمثل في:

١- مناسبات النجاح والتخرج .

٢- مناسبات الأعراس .

٣- السفر والسياحة .

وكل هذه الممارسات تعبير بشري طبيعي، جرت به سنة الله، واقتضته طبيعة البشر. ولم يزل بنو آدم يعربون عن انفعالاتهم الإنسانية؛ في السراء، والضراء، بألوان من الأداء . وكانت مهمة الأنبياء، عليهم السلام، توجيه هذه الانفعالات القلبية، والممارسات العملية، لكي تندرج في دائرة العبادة الواسعة؛ فتقابل السراء بالشكر، والضراء بالصبر، وتنضبط التصرفات بضابط الوحي الإلهي، والهدي النبوي.

حرر في : ١٥ / ٧ / ١٤٢٨ هـ

و(الفرح) في منظور العقيدة نوعان :

أحدهما : فرح مذموم : وهو فرح الأشر، والبطر، والعُجب، والغرور. ومن شواهده:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) القصص/٧٦

(ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) غافر/٧٥

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) الأنعام/٤٤

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) غافر/٨٣

وبعض الناس تدركه خفة، ويطيش ميزانه، حين نجاحه، وتفوقه ؛ فينسب الفضل لنفسه، وحذقه، وذكائه، وجهده ، وينسى المنعم المتفضل !

وبعض الناس يكلل فرحة زواجه، باجتراح جملة من المعاصي والمنكرات، يعدُّها فرحاً، تتطلبه (ليلة العمر) ، يفتتح بها حياته الزوجية التي امتن الله بها عليه !

وبعض الناس يجعل التوسعة على النفس، والأهل، بما وسَّع الله به عليه من الرزق، سياحةً محرمة؛ تغشى أماكن السوء، وتتحلل من الآداب، والحرمات، تحت دعوى الفرح والتنفيس !

الثاني : فرح محمود : وهو الفرح بفضل الله ورحمته، والاغتباط بنعمته، واللهج بذكره، وشكره . وذلك فرح المؤمنين . ومن شواهد ذلك :

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) يونس/٥٨

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الروم/٤ ، ٥

(فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل/٤٠

فالمؤمن يبصر بنور الله، ويتلمس حكمة الله، ويخاف من مكر الله، ويستمتع

بفضل الله، ويعترف بالنعمة لمسديها، ويثني بها عليه :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة

يدي ولساني والضمير المحجبا

إن العقيدة الحقة تحفظ توازن المؤمن في السراء، كما تحفظ توازنه في الضراء، اعتمادا على رصيده من اليقينيات القلبية، والآداب الشرعية، فيبدو في فرحه شاكراً شكراً كريماً، كما يبدو في حزنه صابرا صبراً جميلاً.

العقيدة والسياحة

إن طلب النُّقلة، والضرب في الأرض (السفر)، ظاهرة بشرية، تدعو إليها عدة دواعٍ، وتفرضها عدة أسباب. وهي كسائر الأنشطة البشرية تتعلق بها الأحكام التكليفية الخمسة، ويأطرها إطار العقيدة. والسفر أنواع:

١- سفر طاعة: لحج، أو عمرة، أو زيارة، أو هجرة، أو جهاد، أو صلة رحم، أو تفكر واعتبار. قال تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) الأنعام/١١، وقال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) يوسف/١٠٩، وقال: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) آل عمران/١٣٧، قال صلى الله عليه وسلم: (لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى) رواه البخاري.

٢- سفر معصية: كشد الرحال لغير المساجد الثلاثة، تعبداً، وقصد أماكن الخنا والفجور، والسكنى بين ظهراني المشركين، لغير ما مسوغ.

حرر في: ٢٢ / ٧ / ١٤٢٨ هـ

٣- سفر مباح : لا يتعلق به شرعٌ، ولا منعٌ، لذاته : كالسفر للتجارة، والنزهة، ونحوهما. فالأصل في هذا الإباحة، إلا أن يقترن به نية صالحة، أو فاسدة، تخرجه إلى أحد النوعين السابقين .

وفي العقود الأخيرة، وفي ظل الترف الغربي، نشأ ما اصطلح على تسميته (سياحة). وهي بالمفهوم الغربي، نوعٌ من السفر، يضم ألواناً من المتع المباحة والمحرمة؛ حيث يزاولون خلالها استكشاف بلادٍ جديدة، والتعرف على عادات وثقافات جديدة، وممارسة أنواع من اللهو والعبث في المراقص، والبارات، والشواطئ، بحسب المستوى المادي للسائح، وطبيعة البلاد المزورة.

وامتد هذا التقليد إلى المجتمعات الإسلامية، فصار يزاوله الملأ، وأرباب الأموال بينما كانت الأغلبية الساحقة من الشعوب، ولا زالت، غارقةً في معاناتها المعيشية، لتوفير الضرورات، ولا يدور بخلدها التفكير في الرفاهية والسياحة . ولكن الشركات السياحية تمكنت من استدراج أصحاب الدخول المتوسطة إلى الانخراط في المجموعات السياحية، التي توفر نفقات أقل، وتحقق لهم ما يحلمون به، من الوصول إلى الأماكن الجذابة التي تدغدغ مشاعرهم في الأفلام .

إن المتأمل للسياحة بالمفهوم الغربي، والممارسة الواقعية، يجد فيها اغتراباً عن المقصود الإيماني من السياحة، الذي يهدف إلى الاعتبار، والتأمل، كما تقدم ، بل ويقلل من الاستمتاع المباح المتمثل في تسريح الطرف، وإمتاع البصر في بديع صنع الله، كما دل عليه قوله : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النمل/٦٠، ٦١.

لقد آلت السياحة، حتى في البلاد الإسلامية، إلى أن تصبح :

١- غشياناً لأماكن اللهو، والفسوق، من مسارح، ومراقص، وحفلات غنائية.

٢- اختلاطاً سافراً بين أطباق من البشر الذين لا يقيمون وزناً لخلقٍ، ولا دين، تحت مظلة الحرية الشخصية، وإطلاقاً للبصر في تقحم المناظر المحرمة .

٣- تسوقاً، وبذخاً، وإسرافاً، وإضاعةً للأموال .

٤- تحللاً من القيم، والآداب، التي يتحلى بها كثير من أولئك السياح في بلادهم الأصلية ! فما أن تتجاوز الطائرة أجواز الفضاء المحلي، حتى يتجاوز هؤلاء حدود الله، في اللباس، والعادات، ويتماهون مع اليهود، والنصارى، والذين لا يعلمون ، وكأن المعبود في بلادهم ليس معبوداً في البلاد الأخرى ! وكأن الأحكام الشرعية السائدة في بلادهم منسوخة في البلاد الأخرى !

ألا ما أحوج أهل الإيمان إلى البصيرة، والذكرى، وأن يصطحبوا إيمانهم، وتدينهم، وعقيدتهم، وشريعتهم، في حلهم ، وترحالهم ، على الأقل، ليقولوا للعالمين : ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران/ ٦٤

العقيدة والعيد

(فبذلك فليفرحوا)

(العيد) من محاسن الشريعة، وزينة الإسلام .

(العيد) احتفالية إيمانية رائعة، تصنع الفرح على (الطريقة الإسلامية) البديعة.

(العيد) تعبير صادق عن شكر المنعم، بإكمال العدة، وتمام النعمة .

(العيد) مظهر لوحدة المسلمين، وتأكيد للرابطة الإيمانية التي تجمعهم .

(العيد) مشهد بديع ؛ ينجفل له أهل البلد من جميع أقطاره؛ رجالاً، ونساءً، كباراً، وصغاراً، حتى العواتق، وذوات الخدور المخبئات، اللواتي لا يبرزن عادةً، حتى الحيض اللواتي لا يمكثن في المسجد، يشهدن الخير، ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلى. يجتمعون في ساحة واحدة، يؤمهم إمام واحد، فيكبر الله، ويكبرون بتكبيره، ثم يؤدون هاتين الركعتين الشريفتين، ثم يتوجه لهم بالموعظة والذكرى، وتجديد العزم على المضي في طاعة الله، ثم يتوجه إلى النساء، فيخصهن بموعظة.

وما أن تنقضي هذه الشعيرة الكريمة، حتى يهب الجميع، يصافح بعضهم بعضاً، ويهنئ بعضهم بعضاً، ويعانق بعضهم بعضاً، حسب اختلاف الأعراف، والعادات، في مشهد

حرر في : ١/ ١٠/ ١٤٢٩ هـ

عاطفي حميم، تجلله المحبة في الله، وصفاء القلوب، ليعودوا إلى أهليهم، وذويهم، وقرابتهم الأدنين، بفرح وسرور، وبرٍّ، وصلة .

أليس هذا هو الفرح الفطري، وهو أيضاً الفرح الشرعي، المجلل بالإيمان، المكلل بالشكران. وربما صاحب ذلك بعض العادات الاجتماعية المباحة التي تتسع لها دائرة الشريعة، وتلحقها بقسم المباحات، بل ربما تلتحق بالمندوبات، باعتبار المقاصد، والمآلات، لما يحصل من جرائها من علاقات وصلات .

والمحذور أن يخرج ذلك إلى حد الفرح المذموم؛ فرح الأشر والبطر، وغشيان المنكر، الذي وصفه أحد أنبياء الله بقوله : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ العنكبوت/٢٩، قال ابن كثير، رحمه الله: (أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال، والأفعال، في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ، قاله مجاهد. ومن قائل: كانوا يتضارطون، ويتضاحكون، قالته عائشة،رضي الله عنها،والقاسم. ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شرًا من ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة، أخبرني حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا سِمَاك بن حرب، عن أبي صالح -مولى أم هانئ -عن أم هانئ، قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن قوله عز وجل: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾، قال: «يحذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه».

ورواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة عن أبي يونس القُشَيري، حاتم بن أبي صَغِيرة به. ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سِمَاك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير، عن عمرو بن قيس، عن الحكم، عن مجاهد: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾قال: الصفير، ولعب الحمام، والجُلاهق، والسؤال في المجلس، وحل أزرار القباء) أ.هـ

وجميع هذه الممارسات العبثية، تشي بنوع من الخفة، والطيش، وفقد التوازن، وخلو القلب من شكر الله تعالى، وتقحم الدنايا، والتفكه، والابتذال، الذي لا يليق بأهل الإيمان.

لذا، كان لزاماً على أهل الحل والعقد، والسلطة والولاية، أن يضبطوا حالة التعبير

عن الفرح بالضوابط الشرعية، حتى لا يندلق السفهاء إلى ممارسات مخلة بالدين، والخلق، والعرف الصالح، وينجروا إلى حالات هستيرية، عدوانية، مؤذيةٍ، مخربة، تقلب الفرح حزناً، والنعمة نقمة.؛ كما يقع من صياح منكر، وإزعاج للساكنين، ومفرقعات مدوية، وتجاوزات مرورية، ومعاكسات بذيئة، وفجور .

حفظ الله الأمة، وأقام علم السنة، وعيد سعيد . تقبل الله منا ومنكم .

العقيدة والمخالفون

العقيدة و (الآخر)

شاع في الآونة الأخيرة، قبل نحو عقد من الزمان، استعمال مصطلح (الآخر)، للدلالة على (المخالف) أو (المغاير) ، بقطع النظر عن درجة اختلافه أو مغايرته. وبدا هذا المصطلح لمستعمليه ألطف في التعبير، وأقل دلالةً على وجود حكم مسبق، فراج سوقه في أدبيات الحوار المنفتح، وأجواء العولمة .

ولا ريب أن هذا المصطلح الفضفاض مصطلح وافد، وهجين مولَّد من أمشاج الهزيمة الحضارية، والدهاء الغربي، في رحم العصرانية التي تريد أن تتماهى مع ثقافة المنتصر، ولو كان مخالفاً في أعظم الأمور .

والألفاظ العقدية تمتاز بوضوح الدلالة، وتعيين المراد، وتأبى الإجمال، والإبهام، والتعميم، أو ما يعبر عنه حالياً بـ (الضبابية) و (الهلامية) . ومردُّ هذا الوضوح إلى لغة القرآن والسنة الموصوفة بـ (البيان) و (التبيين) و (البينة) و(الإحكام) و (التفصيل) لأن المقام مقام خطير، يخشى فيه من مزلة الأقدام، وجنوح الأفهام .

فمن هو (الآخر) يا ترى ؟

حرر في : ٢٠ / ٣ / ١٤٢٩ هـ

ربما كان الآخر هو (طرف آخر) في عقد معاوضة؛ من بيع أوشراء، أو إجارة .

وربما كان الآخر مجرد مخالف في مذهب فقهي، في مسائل الفروع .

وربما كان الآخر (صاحب بدعة) عملية، أو اعتقادية، مخففة، أو مغلظة .

وربما كان الآخر (كتابياً) يهودياً، أو نصرانياً، موصوم بنوع من الكفر .

وربما كان الآخر (وثنياً) من الذين لا يعلمون؛ هندوسياً، أو بوذياً، أو كونفوشيسياً.

كل هذه الأطياف المتفاوتة يحتملها مصطلح (الآخر) ! ومن هنا يتضح أن سوْق الكلام في هؤلاء جميعاً سوْقاً واحداً، ضرب من المجازفة والتضليل .

وحين أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، كان جميع الفرقاء موجودين على الساحة العالمية، فلم يعاملهم معاملة القطيع، بل ميز، وفصل، وسمى الأشياء بأسمائها، ورتب الأحكام حسب مقتضياتها، وفق ميزان دقيق، وعدل عميق.

فـ (العقيدة) واضحة في باب أسماء الدين والإيمان؛ لا تحابي، ولاتظلم، حاسمة في أحكامها ، لا لبس فيها ولا غموض :

١- فليس على وجه الأرض إلا مؤمن أو كافر : قال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) التغابن/٢

٢- والكفار على نوعين : مشرك، وكتابي : قال تعالى : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) لبينة/١.

٣- وأفصح بشكل سافر عن سبب كفر أهل الكتاب، فقال : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) المائدة/١٧،٧٢، وقال : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ) المائدة/٧٣، وقال : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) المائدة/٧٨-٨٢ .

فلا سبيل إلى تجاوز هذه النصوص المحكمة، والأحكام القطعية، والأسماء الراسخة التي دمغهم الله بها إلى يوم القيامة. وكل محاولة للالتفاف عليها باستبدال، أو تأويل تبدو عبثية، وقتية، لا تهز شعرة من اليقين لدى المسلمين .

وكما أن (العقيدة) واضحة في باب الأسماء والمصطلحات، فإن (الشريعة) عادلة في باب الأحكام والمعاملات؛ فلا ظلم ، ولا عدوان، ولا إكراه في الدين، ولا عدوان إلا على الظالمين . قال تعالى : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) الممتحنة/٨، ٩. فاختلاف الدين لا يسوِّغ العدوان،والغدر،والخيانة، بل فوق ذلك، يجعل الأمر دائراً بين مرتبتين: إحداهما : مرتبة القسط، والعدل، وإيتاء كل ذي حق حقه.

الثانية : مرتبة البر،والإحسان: التي هي الدعوة العملية لاعتناق الإسلام. وهكذا كان.

ويلتبس الأمر على كثير من الناس؛ فيظن أن مقتضى تحقيق (الكفر) على (الكافر) يستدعي ظلمه، أو قتله! والأمر ليس كذلك . ويظن فريق أن النصوص الدالة على البر والإحسان، ترفع أسماء الدين والإيمان، وتميع الحدود الفاصلة بين الكفر والإسلام.

إن التوسع في استعمال مصطلح (الآخر) لا يخدم القضية، بل يزيدها لبساً، وغموضاً، ويفسح المجال للآراء المتطرفة في طرفي الإفراط والتفريط . والله المستعان .

العقيدة و (التعارف)

المؤمن بطبعه هين، لين، يألف، ويؤلف، يلقي السلام على من يعرف، ومن لا يعرف. وقد جاءت نصوص كثيرة ترسم هذه السمات النفسية لأهل الإيمان، منها:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات/١٣، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) متفق عليه، وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ، لَيِّنٍ، سَهْلٍ، قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ) رواه أحمد، والطبراني .

وكان من نتيجة هذه السمة الحسنة انتشار الإسلام، وقبوله بين العالمين؛ من شتى الأعراق، واللغات، والبلدان، بالقدوة الحسنة، والمُثُل العليا التي كان يتحلى بها جيل الصحابة، والتابعين لهم بإحسان .

حرر في : ١٣ / ٨ / ١٤٢٩ هـ

وقد كان تعرف المؤمنين على غيرهم تعرفاً واعياً، ولم يكن استكشافاً ساذجاً، فقد نبأهم الله من أخبارهم، وعرفهم بأحوالهم، فأدركوا الدور المناط بهم، والرسالة التي يحملونها للبشرية، فاستخدموا هذا المخزون المعرفي لدعوة الناس إلى الحق، ونقد ما هم عليه من انحراف .

وتحت ضغط الحالة الحضارية المتخلفة للمسلمين، والهزيمة النفسية التي تسكن نفوس كثير من المبهورين بالحضارة المادية المعاصرة، حاول بعض المتحدثين أن يعيد صياغة مفهوم (التعارف)، ويخرجه عن مراد الله، ويوظفه لمقاصد تفضي إلى نزع سمة التميز والخيرية عن الأمة، وتسلبها رسالتها الربانية.

يفسر بعض العصرانيين مفهوم (التعارف) بما يدل على مجرد (التعرف) وحسب! يقول د. أحمد صدقي الدجاني: (والإسلام يقرر أن الله خلق الناس من ذكرٍ وأنثى، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا... أحد الأهداف التي لها أولوية، هدف التعارف، الذي يتحقق من خلال معرفة الآخر على حقيقته، وتصحيح الصورة الذهنية عنه، الحافلة بركام من الأحكام المسبقة، وسوء الفهم، اللذين يفرقان بين أتباع الديانتين) وهو معنًى يوحي بأن المراد بـ (التعارف) في آية الحجرات : استكشاف الآخر المجهول، ووصف الصورة الذهنية التي رسمها الكتاب والسنة عن الديانات المحرفة بالخطأ وسوء الفهم، وكأن ذلك من أساطير الأولين، وليس من حكيم عليم !

ويطوّح بعضهم في تفسير (التعارف) ليحمله وزراً ثقيلاً، زاعماً أنه يدل على الدعوة إلى تكوين قيم إنسانية مشتركة ! يقول د. يوسف الحسن : (هذه هي رسالة الحضارة القائمة على الإيمان بوحدة الأصل البشري، وعلى مبدأ التعارف، والتسامح الثقافي في مواجهة نفي الآخرين، وعلى الرغبة المشتركة في بلورة قيم إنسانية، تبطل المناخات المفعمة بالمخاوف) تُرى! هل كان النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه معنيين بتأليف موسوعة في القيم الإنسانية، أم بالدعوة إلى (كلمة سواء) مضمونها: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ آل عمران/ ٦٤

ويشطح فريق ثالث، فيفسر (التعارف) بـ (الاعتراف) ! يقول د. موسى

الكيلاني بعد استدلاله بالآية السابقة: (فالمعرفة هي محور الحوار، والاعتراف المتبادل هو ركنه، وأسُّه).

وينحط فريق رابع، أعطى الدنية في دينه، ولم ينعم باستعلاء الإيمان، حين يفسر (التعارف) بـ (طلب الاعتراف) من الآخر الكافر، واستجدائه ! يقول د. رضوان السيد: (وبدا من ناحية أخرى توق المسلمين الشديد، ليعترف بهم المسيحيون ديناً مستقلاً، كما اعترف بهم الإسلام باعتبارهم أهل كتاب). سبحانك هذا بهتان عظيم ! أين الدليل على أن المسلمين كانوا يتوقون إلى انتزاع اعتراف من النصارى بصحة دينهم ؟ إن هذه الدعوى أقرب إلى التعبير عن شعور الكاتب، منها إلى الحقيقة. لقد كان المسلمون يدعون الناس جميعاً إلى الدخول في السلم كافةً، واتباع الرسول الخاتم، والإيمان بالكتاب الناسخ المهيمن.

وبعيداً عن هذه الدركات الأربع، في تفسير (التعارف) بالتعرف تارة، وببلورة قيم مشتركة، تارة أخرى، وبالاعتراف ثالثةً، وبطلب الاعتراف رابعةً، نجد المفسرين المعتبرين يقولون غير ذلك قال ابن جرير رحمه الله: (وقوله «لتعارفوا» يقول: ليعرف بعضكم بعضاً في النسب). وقال ابن كثير رحمه الله: (أي ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته). وهذه طريقة عامة المفسرين. فعلام التعني، ولم التكلف ؟

العقيدة والحوار (١)

مصطلح (الحوار) من المصطلحات الرائجة عالمياً، في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، ومطلع هذا القرن . ولم يكن متداولاً في أي من المواثيق الدولية المصاحبة لإنشاء (هيئة الأمم المتحدة) ، ومنظماتها المختلفة. وقد تنامى استخدام هذا المصطلح في الآونة الأخيرة لتخفيف الاحتقانات الناشئة بين مختلف الفرقاء. فنشأ في عقود خلت (الحوار الإسلامي المسيحي)، و(حوار الأديان الإبراهيمية) و(حوار الحضارات) على مستوى الأديان، و(حوار الشمال والجنوب) على المستوى السياسي، و(الحوار الوطني) على المستويات المحلية .

و(الحوار) في أصل وضعه اللغوي يعني : المراجعة في الكلام، كقول الله تعالى : (والله يسمع تحاوركما) وقوله : (قال له صاحبه وهو يحاوره). فالمحاورة مفاعلة في الكلام بين طرفين . وتلك حقيقته الاصطلاحية أيضاً. وقد بات هذا التعبير محبذاً لكونه لا يعطي انطباعاً بوجود أحكام مسبقة، مما يرفع الحرج عن طرفيه.

حرر في : ٢٨ / ٣ / ١٤٢٩ هـ

ويقاربه في التعبير القرآني مصطلح (المجادلة) ،و(المحاجة) . وفي الاستعمال العلمي مصطلح (المناظرة). ولا مشاحة في الاصطلاح. فالحوار إذاً هو الطريق للتواصل العقلي بين طرفين، والوعاء الذي يحوي مضامين فكرية معينة. فهو أداة، وظرف، ليس إلا.

وبهذا التعريف لمصطلح (الحوار) يمكن القول إن (الحوار) ضرورة لـ (العقيدة) ! لكونه الجسر الناقل لمضمونها، والأسلوب الآمن للتعبير عنها بصورة مطمئنة. وبالتالي يمكن القول بأننا – أهل الإسلام- أسعد الناس بالحوار، وأشدهم طلباً له، وحرصاً على تهيئة الجو النقي لحصوله . ويتبدى ذلك في المبادرة القرآنية بدعوة أهل الكتاب إليه؛ كما في قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا) أي هلموا، وأقبلوا ! فنحن أصحاب المبادرة، نسبق غيرنا في توجيه الدعوة إلى اللقاء والحديث، ولا ننتظر أن توجه إلينا. ذلك أننا أصحاب مشروع ورسالة نسعى إلى إيصالها.

ولكن هذا (الحوار) الذي نحرص عليه، ليس حواراً أعمى، ولا ارتياداً لمناطق مجهولة، بل هو حوار مبصر، يدعو إلى (كلمة سواء) . تلكم الكلمة عرفها الله تعالى بنفسه، ولم يدعها، لتفسير مفسر، ولا لقول فقيه، فقال سبحانه : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) آل عمران/ ٦٤

ومن هنا يتضح الفرق الهائل بين (حوار الدعوة) و (الدعوة إلى الحوار) ؛ فالأول: هو مشروع الأمة الخيرة المختارة : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) آل عمران/ ١١٠. والثاني : مشروع ضبابي، مظلم، لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة ! ولا يعرب عن مبدأ، أو معتقد، أو منطلق واضح، وإنما هو (تجرد مطلق) و (انخلاع تام) عن أي انتماء، بدعوى البحث عن الحقيقة المنشودة. ولئن ساغ ذلك في القضايا الاجتهادية، أو المسائل النظرية، أو الفرضيات الدنيوية، فإنه لا يسوغ بحال تجاه القضايا العقدية، وأصول الإيمان .

لقد نجح دهاة الغرب، بشقيه؛ النصراني، والعلماني، في تسويق هذا المصطلح اللغوي، متلبساً بهذا الاستزلال الفكري، لدى كثير من مثقفينا، وكتّابنا، وإعلاميينا، إلى الحد الذي صار بعضهم يجهر بأنه ليس لأحد أن يدّعي (الحقيقة المطلقة) ! وأن الحقيقة دوماً (نسبية) دون تمييز بين (النص المعصوم) الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) فصلت/٤٢، والذي: (مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) النجم/٣، وبين الاجتهادات البشرية القابلة للخطأ والصواب. بل بلغ الأمر ببعض من تتجارى بهم الأهواء إلى إخضاع (النص القرآني) إلى معاول (النقد التاريخي)، ورفع الحصانة عنه !

إننا ندعو إلى حوار، واعٍ، مبصر، ينطلق من ناطق الكتاب، وصحيح السنة، ورسالة الأمة، نتوجه به إلى العالم أجمع، مبشرين بما يحمله هذا الدين القويم من خيرٍ، وبرٍ، وعدلٍ، ومرحمة. وننأى بأنفسنا أن نتدسس في الخطاب، أو نتلجلج في الكلام، وكأننا في (قفص الاتهام)، وكأن مخالفنا في (ساحة البراءة)، والأمر على النقيض تماماً.

العقيدة والحوار (٢)

مارست الأمة الإسلامية نوعين من الحوار :

أحدهما : الحوار العقدي، أو الديني: وهو المقصود بالحديث هاهنا. ويرتبط هذا النوع بأصول الاعتقاد، ومفاصل الإيمان. وهو من باب (الثوابت) التي تقوم على القطعيات، و (الحقيقة المطلقة)، و (النص المعصوم) الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) فصلت/٤٢ . وليس لأحد من الأمة كائناً من كان ، أن يساوم عليه، أو يحجب شيئاً منه، أو يقدم، أو يؤخر، أو يصطفي من تلقاء نفسه . وهو عنوان الفخار، وسر التميز لهذه الأمة الهادية . وكل محاولة للنيل من هذه الأصول الثابتة، ضرب من الاستزلال، الذي حذر الله تعالى منه نبيه صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) القلم/٩ ، وقال : (وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) المائدة/٤٩.

الثاني : الحوار السياسي، أو المدني، أو ما يسميه بعضهم (حوار التعايش : وهو من ضرورات الحياة، وطبيعة البشر. وتفرضه حركة الأمة الإسلامية أثناء

حرر في : ١٢/ ٤/ ١٤٢٩هـ

قيامها برسالتها، واحتكاكها بالآخرين. كما يفرضه النشاط الإنساني للفرد المسلم أثناء تعامله الشخصي مع أفراد غير مسلمين. وعلى مستوى الأمة يرتبط هذا النوع بباب (السياسة الشرعية) و (الأحكام السلطانية) تبعاً لقواعد الشريعة، وتحصيل مصالح الأمة، ودفع الضرر عنها، في وقتٍ معين، في حالة معينة. ويتسع هذا اللون لقدر من المراوحة، وهامش من التفاوض المصلحي، الذي يقدره ولي أمر المسلمين، وأهل الحل والعقد من مستشاريه، ومعاونيه، والأمة لهم تبع.

وقد مرت الأمة الإسلامية في عهد النبوة، وفي زمن الخلافة الراشدة، وعبر الدول الإسلامية المتعاقبة، لمختلف الاحتمالات، والظروف المتغيرة. وبقيت (الثوابت العقدية) وتغيرت (السياسة الشرعية) حسب تغير أحوال الأمة؛ قوةً، وضعفاً . ومن أمثلة ذلك:

١- عاش السابقون الأولون من الصحابة (قلةً مستضعفة) في وسطٍ مشرك في مكة، قبل الهجرة، مستمسكين بعقيدتهم الثابتة، منهيين عن المداهنة، والمساومة، وطلب منهم أن يقولوا، مع نبيهم، صلى الله عليه وسلم : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) . وفي ذات الوقت، قيل لهم : (كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) النساء/٧٧ .

٢- هاجرت طائفة من المؤمنين الأوائل، إلى أرض الحبشة، فراراً بدينهم من الفتن، وعاشوا (أقليةً مسلمة) في وسط (أكثريةٍ نصرانية) تحت سلطان عادل، النجاشي، وحافظوا على عقيدتهم الثابتة، رغم ما تعرضوا له من محاولة ماكرة من مندوبي قريش، وإحراج كبير، أمام مخالفيهم في العقيدة، الذين آووهم، وأحسنوا إليهم، فلم يتزحزحوا قيد أنمله، وجهروا بعقيدتهم، متوكلين على ربهم، فجعل الله العاقبة لهم، وآمن النجاشي، رحمه الله.

٣- هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأقام دولة الإسلام الأولى، وجاور قبائل يهود الثلاث؛ بنو قينقاع،وبنو النضير،وبنو قريظة. وتعامل معهم على مستويين :

أحدهما : المستوى الدعوي : دعاهم إلى الله، واتباع رسوله، والإيمان بكتابه.

وتذرع بجميع الوسائل السلمية لدعوتهم، ومحاورتهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فغشى مجالسهم، ومعابدهم، ومحافلهم، وبيوتهم، واستدعاهم، ودعاهم. وهذا (حوار الدعوة).

الثاني : المستوى السياسي : أبرم معهم معاهدة سياسية للدفاع المشترك، وتحمل الديات، والسلم الاجتماعي، عرفت باسم (وثيقة المدينة) . فلما خانت قبائل يهود؛ الواحدة تلو الأخرى، ونقضت العهود، عاملهم بما يقتضيه الموقف السياسي، فقاتلهم، وأجلاهم. ولم يخنهم، ولم يغدر بهم، كما فعلوا . وهذا هو (حوار التعايش) .

٣- استقبل النبي صلى الله عليه وسلم، (وفد نجران) في مدينته، وأدخلهم مسجده، ومكّنهم من الصلاة فيه، مستقبلي المشرق، وحاورهم، وجادلهم، ولم يتمخض عن اللقاء (بيان مشترك) أو (لقاء في منتصف الطريق) أو تجميع لـ (نقاط الاتفاق)، وإقصاء لـ (نقاط الافتراق) بل قال لهم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران/٦٤ ، ثم باهلهم، فأبوا، ورضوا أن يبذلوا الجزية، ويبقوا على دينهم، ورسومهم، فأجابهم، ولم يكرههم على الدين؛ إذ : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/٢٥٦

٤- انساح الفاتحون الأوائل من الصحابة والتابعين (قلةً منتصرة) وسط خضم من الأمم المغلوبة؛ من المشركين، وأهل الكتاب، فساروا على طريقة نبيهم صلى الله عليه وسلم، من الدعوة إلى (كلمة سواء)، ولم يلفقوا، أو يوفقوا، أو يرقعوا، بل كانوا على البيضاء التي تركهم عليها نبيهم صلى الله عليه وسلم. فمن أجابهم من الأمم المغلوبه صار كواحد منهم؛ له ما لهم، وعليه ما عليهم. ومن أبى خيروه بين الخضوع لدولة الإسلام، وحكمه العام، ودفع الجزية، مع بقائه على دينه، أو المواجهة المسلحة، حتى يقضي الله بينهم وبينه. ولم يدخلوا معه في (مماكسة دينية) وربما أبرموا معه معاهدة سياسية، أو صلحاً مؤقتاً، يستفيد منه الطرفان .

وهكذا بقيت (العقيدة) محفوظة، و (دار الإسلام) مصونة. وربما وقع في مطاوي التاريخ حالات ضعف وانكسار، ناتجة عن التقصير في الأخذ بالأسباب،

فنالهم من سنة الله ما ينال كل مقصر في دينه، أو دنياه . لكن القضية الراسخة، والموقف الثابت عبر القرون المتطاولة حماية جناب التوحيد، وصيانة العقيدة، والذود عن شجرة الإيمان، أن تجتث، أو يقطع غصن من أغصانها. والله غالب على أمره.

العقيدة والباطنيون

فاه بعض من عُرف بالهوس الفكري، قبل بضعة أيام بحديث عجب ! أثنى فيه على بني عبيد القداح ، الزاعمين زوراً وبهتاناً أنهم من نسل فاطمة، رضي الله عنها، السائمين المسلمين سوء العذاب، في الأرض التي سام فيها فرعون بني إسرائيل، سوء العذاب، من قتل، وحبس، وإذلال . ووجد هذا المتهوك، المتقلب بين شتى النظريات، المتنقل عبر أنواع الانتماءات القومية، والإقليمية، بغيته في الدولة العبيدية، ليشيد بها، ويقدمها للعالم الإسلامي، بقراءة عمياء، بوصفها الأنموذج الأمثل للدولة الإسلامية المعاصرة، التي تستوعب كافة الاختلافات، والتنوعات، العقدية، والمذهبية ! وكما قيل: (وافق شنٌ طبقة) و (الطيور على أشباهها تقع).

وهؤلاء الكفرة الجناة، من سلالة القداح، خزيهم قد زكم الأنوف، وشرهم وبلاؤهم لم يسلم منه أحد . وهم أشد الطوائف مصادرة للحريات، وظلماً للعباد؛ لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة . وقد صنف العلماء، والمؤرخون في مخازيهم، وجرائمهم، ما لا يبقِ شكاً بكفرهم، وزندقتهم، فهم كما قيل (ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض) وبئس المذهب، ظاهراً، وباطناً.

حرر في: ٣ / ٤ / ١٤٢٨ هـ

وفيما يلي شظايا من تاريخهم الجهنمي، ومآسي من سيرتهم الدموية، عليهم من الله ما يستحقون، ومن نحا نحوهم، وأعجبه شأنهم، كم أن فيها مواقف مشرفة لعلماء أهل السنة، في مواجهتهم، والصدع بالحق في وجوههم :

١) قال أبو عبد الله محمد بن سعدون في مصنفه (تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الزمان) في سيرة المهدي العبيدي : (.. وكذلك أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بابن برذان، وبابن هذيل ، وكانا من العلماء الخاشعين لله، فلما وصلا إليه وجداه على سرير ملكه جالساً، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي الذي ولاّه الملك ، وسلم له فيه وعن يساره أبو العباس أخوه. فقال لهما أبو عبد الله وأخوه: إشهدا أن هذا رسول الله! فقالا جميعاً بلفظ واحد: والله الذي لا إله إلا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه، والقمر عن يساره، وينطقان فيقولان إنه رسول الله ، ما قلنا إنه هو! فأمر عبيد الله - لعنه الله - عند ذلك بذبحهما، وربطهما في اذناب الخيل، وأن يشق بهما سماط القيروان. ففعل ذلك بهما رحمة الله عليهما) عن البيان المغرب. لابن عذاري المراكشي:١/ ٢٨٢

٢) وقال ابن سعدون أيضاً : (وخرج في دولة عبيد الله شيخ للسفر، ومعهم خيل فباتوا في مسجد بخيولهم. فقيل لهم: كيف تدخلون خيولكم المسجد؟ فقال لهم الشيخ وأصحابه: إن أرواثها وأبوالها طاهرة، لأنها خيل المهدي. فقال القيم بالمسجد: إن الذي يخرج من المهدي نجس، فكيف الذي يخرج من خيله؟. فقال له: طعنت على المهدي! وأخذوه، وذهبوا به إليه فأخرجه عشية جمعة فقتله). عن البيان المغرب: ١/ ٢٨٤

٣) قال ابن عذاري المراكشي ، في سيرة المهدي العبيدي : (وقتل « عروس» المؤذن، بمسجد ابن عياش الفقيه، بعد أن ضرب بالسياط وقطع لسانه، إذ شهد عليه قوم من المشارقة (١) بأنه أذّن ولم يقل: حي على خير العمل. وكان من المتزهدين، يطحن بيده، ويعمل الحلفاء، ويتعيش من ذلك).

٤) قال أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري رحمه الله: (ت٦٩٦هـ) : (إن أبا عبد الله محمد بن إسحاق ولي قضاء برقة لإسماعيل (٢). وكان ابن الكافي عاملاً عليها فأتى

---

١ المراد: الشيعة الذين قدموا من المشرق لدولة العبيديين بالمغرب.

٢ هو إسماعيل المنصور ، ثالث أئمة العبيديين في بلاد المغرب (٣٣٤-٣٤١).

ابن الكاتب فقال له: إن غداً العيد. فقال القاضي: إن رُئي الهلال الليلة كان ما قلت، وإلا فلا، فلا يمكنني أن آمر الناس بالفطر في يوم رمضان، وأتقلد ذنوبهم. فقال له: بهذا وصل إليّ كتاب مولاي - يعني إسماعيل - فالتمس الناس الهلال فلم يروه. فأصبح العامل إلى القاضي بالطبول والبنود وهيئة العيد. فقال القاضي: والله لا أخرج ولا أصلي ،ولا أفطر في يوم من أيام رمضان، ولو علّقتُ بيدي. فمضى العامل فجعل من خطب وصلى. وكتب بما جرى إلى مولاه.فلما وصل إليه الخبر أمر برفع القاضي . فلما وصل إلى القيروان، قال له: إما أن تتصل بنا ونعفو عنك، أو نفعل بك ما قلت. فامتنع من الدخول في دعوته، وقال: افعل ما شئت. فنصب له صارياً عند الباب الأخير من أبواب الجامع الذي يلي درب الهذلي، وعلق بيده إليه في الشمس. فأقام كذلك ضاحياً في شدة الحر يومه وليلته. فلما كان بالغد مات ولسانه خارجٌ من العطش، وهو يطلب من يسقيه الماء، فلم يسق خوفاً من عامل البلد. فلما مات أخذوه وصلبوه بباب أبي الربيع. وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة رحمه الله ورضي عنه) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان:٣/٤٩

٥) قال ابن كثير رحمه الله في ترجمة المعز الفاطمي (ت:٣٦٥هـ) : (.. وقد أحضر إلى بين يديه الزاهد العابد الورع الناسك التقي، أبو بكر النابلسي، فقال له المعز: بلغني عنك أنك قلت: لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة، ورميت المصريين بسهم. فقال: ما قلت هذا. فظن أنه رجع عن قوله. فقال: كيف قلت؟ قال: قلت: ينبغي أن نرميكم بتسعة ، ثم نرميهم بالعاشر. قال: ولم؟ قال: لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادعيتم ماليس لكم. فأمر بإشهاره في أول يوم، ثم ضُرب في اليوم الثاني بالسّياط ضرباً شديداً مبرحاً. ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث. فجيء بيهودي، فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن. قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين، فمات رحمه الله. فكان يقال له الشهيد. وإليه يُنسب « بنو الشهيد» من أهل نابلس إلى اليوم، ولم تزل فيهم بقايا خير) البداية والنهاية:١١/ ٢٨٤.

هذا غيض من فيض، من سيرة القوم الظالمين، وشؤمهم على الإسلام والمسلمين . فماذا ترى يريد الباطنيون الجدد، الزاعمون أن الشمال الإفريقي

الذي طهره الله من رجس الرفض والباطنية، وريث الدولة العبيدية، وحاضن ثقافتها !! خابوا وخسروا، ورد الله كيدهم في نحورهم .

الخواء العقدي

العقيدة (روح) تُنفخ في كثافة البدن، و (نور) يسري في ظلمات القلب، فيصبح للحياة معنى، وغاية، وثمرة. وحين تُفقد العقيدة، أو تضعف، تظهر أعراض الموات، أو المرض، فتستحيل الحياة بهيمية، شقية، نكدة. قال تعالى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) الأعراف/١٧٩ . هكذا تتعطل الحواس عن أدائها الصحيح، وتضيع في العماء، والخواء.

وفي هذا العصر الذي اكتنفت البشرية سحب الشهوات، والشبهات، والغفلات، وأصاب لفحها بعض مسلمة الوراثة، بتنا نرى، ونسمع، أموراً لا عهد لأهل الإسلام بها، نبتت كما تنبت الفطريات في الماء الآسن، وربما ظن أهلها ألا شأن لها بأمر الإيمان والاعتقاد. والواقع أنها أثر، وعرض لمرض (الخواء العقدي) و(التصحر الروحي)، وفقد الصلة بالله العظيم. وكان أشد فئات المجتمع تأثراً بها، الناشئة؛ من فتيان، وفتيات، ممن خضعوا لتأثير مكثف، وتلويث مخ، لا غسيل مخ، من الآلة الإعلامية الغربية، والشرقية، عبر

حرر في : ٦/ ٥/ ١٤٣٠ هـ

مختلف الوسائط؛ من فضائيات، ومواقع انترنت، وغيرها.

ومن تلك المظاهر:

١- الولع بالاتجاهات الفكرية، والفلسفية، والأدبية، المنافية لحقيقة الإسلام، وأصل الدين؛ من علمانيةٍ، وليبرالية، وحداثة، وغيرها، وحسبانها مسالك موازية للتدين الشخصي، لا تتنافى مع رسومه، ولا تتعارض مع مقاصده.

٢- التعلق بالأوهام الحديثة التي تقذف بها آلة الظن، والكهانة المعاصرة، تحت أسماء مزخرفة، مثل (الطاقة الكونية)، و(قوة الجذب)، بل وبعض صور (البرمجة اللغوية العصبية) الخ. فتستهوي أصحاب العقول الضعيفة، وتجرجرهم في ظلمات الظن، والتخمين، وإثبات أسبابٍ لم ينصبها الله أسباباً؛ لا حساً، ولا شرعاً. حتى باتت رفوف المكتبات تجيش بهذا اللون من الكتب العبثية، التي تتلاعب بعقول الناس، وتبيعهم الوهم صِرفاً. ثم لا يشعر كثير من هؤلاء، أن الأمر يتصل بأمر الاعتقاد، أو يدانيه.

٣- الانخراط في الجماعات ذات الطقوس الغريبة، والممارسات المريبة؛ كجماعات (الإيمو) التي تستغل (الحرمان العاطفي) و (فقر المشاعر) لدى المراهقين، والمراهقات، لتستدرجهم إلى ما يشبه عبادة الشيطان؛ من حيث يعلمون، أولا يعلمون، فيتزيَّون بأزياء منكرة، ويتكلمون بلغة تنبو على السمع، وتفضي إلى الكفر، دون أن يشعر من حولهم بأن ذلك يمس جناب العقيدة، ويهدم بنيانها.

٤- الانغماس في الشذوذ الجنسي، ومناقضة الفطرة السوية، وانتماء بعض الفتيان، علانيةً، إلى فئة (الجنس الثالث) من المخنثين، وانتماء بعض الفتيات، علانيةً، إلى فئة (الجنس الرابع) من المسترجلات، أو من يُسمَّين، بالرطانة (البويات). وقد يتوهم بعض المراقبين، ألا صلة لذلك بأمر الاعتقاد، وأنه لا يعدو أن يكون انحرافاً سلوكياً.

إن هذه الممارسات، والانتماءات، جميعها، لتكشف عن (قصور) بالغ في فهم حقيقة الدين، لدى كثير من المنتسبين إليه، وتكشف عن (تقصير) بالغ لدى حملة العلم والعقيدة، في بيانه للناس، وكشف ما ينافيه.

إن على الراسخين في العلم والإيمان، والمتخصصين في علوم العقيدة، أن يعيدوا النظر في اهتماماتهم، ويرتبوا أولوياتهم، ويتنبهوا للخطر الداهم الذي يجتاح الجيل الجديد، ولا يضيعوا أوقاتهم في استحياء رفات صراعات تاريخية، أو تحقيقات تراثية تجاوزها الزمن.

على حملة العقيدة أن يرتقوا إلى أفق العقيدة، ويبصروا المشهد الواقعي، بمختلف تجاذباته، لكي تكون جهودهم في محلها، وتؤتي أكلها، وتحمي الأمة، وتصون بيضتها.ونحن على ثقة مطلقة، من أن جميع هذه المظاهر السلبية،ما كانت لتطل برأسها، وترفع عقيرتها، إلا في غياب الطرح الواعي، والمعالجة المستنيرة، والاستدلال بالنص المعصوم، والعقل السليم، والفطرة السوية. و(إذا جاء نهر الله، بطل نهر معقل) .

العقيدة والنصارى

(زيارة البابا)

في غضون الأسبوع المنصرم، قدم البابا (بندكتوس السادس عشر) أسقف الكنيسة الكاثوليكية، ورئيس حاضرة الفاتيكان، في زيارة إلى ما يسميه النصارى (الأراضي المقدسة)، وتشمل مواقع في الأردن، مثل: موقع المعمودية (المغطس) على نهر الأردن، وجبل (نيبو) و قلعة (مكاور). وفي فلسطين، مثل (المسجد الأقصى)، و(بيت لحم) و(الناصرة)، وغيرها. وغادرها اليوم الجمعة٢٠/٥/١٤٣٠، الموافق ١٥/٥/٢٠٠٩م. وكان سلفاه: البابا (بولس السادس: ١٩٦٣-١٩٧٨) و (يوحنا بولس الثاني: ١٩٧٨-٢٠٠٥). فما سر هذه الزيارات البابوية المتعاقبة، لمنطقة إسلامية، ملتهبة، خلال العقود الخيرة ؟

لا يغيب عن البال أن المرجعيات النصرانية؛ الدينية، والسياسية، عبر التاريخ، تشعر بالأسى الشديد، والغيظ العميق لكون مدارج النصرانية الأولى، ومهد المسيح عليه السلام باتت بأيدي المسلمين. فبلاد الشام الكبرى (سوريا، والأردن، وفلسطين) كانت تعج بمختلف الطوائف النصرانية المتناحرة، حين جاء

حرر في: ٢٠/٥/١٤٣٠هـ

الفتح الإسلامي بـ(البينة) التي لا غنى لهم عنها: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ .رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) البينة/١-٣

فانخرطت أعداد هائلة من نصارى المشرق في الإسلام، ورأوا فيه الامتداد الطبيعي لدين الله، النقي من البدع، والشركيات، والفلسفات، التي جرى إدخالها في دين المسيح. وصارت بلاد الشام، والعراق، ومصر، وغيرها بلاد إسلام. بل إن أربعاً من خمس حواضر نصرانية مقدسة، صرن حواضر إسلامية؛ يرفع فيها الأذان، ويتلى فيها القرآن، ولم يبق بها سوى (أقليات) نصرانية، وهي : القدس، والقسطنطينية (استانبول)، و أنطاكية، والإسكندرية. وبقيت روما، وحدها بيد النصارى!

ولأجل هذا الغيظ التاريخي الديني، جرد الأباطرة، والبابوات، الحملات الصليبية المتعاقبة، لكنها باءت بالفشل الذريع أمام حجة الإسلام الباهرة، وجهاده المنبعث.كما فشلت الحملات الاستعمارية للغرب المتعلمن، في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية، في العصر الحديث، من أن تستقر في المنطقة الإسلامية، سواءً بسواء.

ومنذ منتصف القرن الميلادي العشرين، والمراجع النصرانية؛ ممثلةً بـ(الكنيسة الكاثوليكية)، التي يتبعها أكثر من مليار من نصارى العالم، و (مجلس الكنائس العالمي) الذي يستوعب الباقي، صارت ترفع شعار (التقارب) و (الحوار) الذي لا يسعها سواه في ظل مرحلة الضعف، والتهميش، الذي تحياه، وفي مواجهة المد الإسلامي في معاقلها العتيدة، الذي تلقاه.

وفي هذا السياق (التكتيكي) تأتي زيارات البابوات المتعاقبة للشرق الإسلامي، لتأكيد الارتباط التاريخي الديني بالمنطقة، وتعزيز الأقليات النصرانية المشرقية، رغم اختلافهم العميق فيما بينهم، من جهة، ومن جهة أخرى لترديد شعارات الحوار، والتقارب، التي يذرون فيها الرماد على العيون، في الوقت الذي يسيئون فيه للإسلام، والقرآن، ونبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، في تصريحاتهم.

ولعل البابا الحالي (بندكتوس السادس عشر) كان أقل حذقاً من سلفه

(يوحنا بولس الثاني) ، إذ لم تكد تمضِ سنة على حبريته، حتى فاه في محاضرة ألقاها في جامعة (ريغينسبورغ) الألمانية في أيلول ٢٠٠٦م، بتصريحات مسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم، أثارت ردود فعل غاضبة، لدى المسلمين. ولم يكن منه، إلا أعرب عن (أسفه) لـ (سوء فهمه)، حين قال في بيانه الشخصي : (أنني أشعر بأسف عميق لردود الفعل في بعض البلدان، لفقرات قليلة من خطابي بجامعة ريغينسبورغ، والتي اعتبرت مسيئة لمشاعر المسلمين) .

وهاهنا مغالطة لفظية، لا يدركها كثير من الجمهور الإسلامي، وتحمل دلالة مميزة في التصريحات السياسية، ألا وهي التفريق بين (الأسف) و (الاعتذار)! فالبابا يأسف لسوء فهم الآخرين، ولكنه، وحتى اللحظة التي زار فيها أحد مساجد الاردن قبل أيام، لم يعتذر!

وثمَّ، كمين لفظي آخر، لا يتفطن له كثير من المسلمين، وربما تنطلي عليهم خدعته، وهو ما يرد في التصريحات الكنسية من عبارات ثناء، ومجاملة، ابتداءً مما تضمنته وثيقة المجمع الفاتيكاني الثاني الشهيرة : (وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين، الذين يعبدون الإله الواحد القيوم الرحيم ..) وانتهاءً بتصريحات البابا الحالي (بندكتوس السادس عشر) في الأردن حين قال إنه يستغل هذه الزيارة (كي يعرب عن عميق احترامه للمجتمع الإسلامي) . إن جميع العبارات التوددية الصادرة من الجهات الكنسية لا تقدم تقديراً لـ (الإسلام) بوصفه ديناً، وإنما لـ (المسلمين) بوصفهم أفراداً، ومجتمعات. وبالتالي، فهو إمعان في الإصرار على التكذيب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكون الإسلام ديناً من عند الله، فضلاً، أن يكون هو الدين الخاتم، الناسخ لجميع الأديان. وقد حلل الكاتب الروسي (إلكسي جورافسكي) في كتابه العميق (الإسلام والمسيحية) العبارات الحذرة التي صيغت بها دساتير، وقرارات، وبيانات، المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) حتى لا تقع في شَرَك تزكية الإسلام كدين، بما لا يتسع بسطه في هذا المقام. (انظر كتابي : دعوة التقريب بين الأديان:١/٤١٢-٤١٥

وربما قال بعض السذج : ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل وفود اليهود والنصارى ؟ فالجواب : بلى ! بل ويستدعيهم، ويستضيفهم، بل

ويقصدهم في كنيسهم، في يوم مدراسهم ! لكنه، بأبي هو وأمي، كان يدعوهم على عبادة الله وتوحيده، والإيمان برسوله، ونبذ الشرك، والغلو، كم أمره ربه بقوله : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) آل عمران/ ٦٤

فأين هذا من لقاءات المجاملة، والمداهنة، والمصانعة، التي يقال فيها كل شيء، إلا : (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) . ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

العقيدة واليهود

(أحداث غزة)

أفاق المسلمون، في غزة، ضحى يوم السبت الأخير من عام ١٤٢٩، على قصف الطائرات الإسرائيلية المعربدة في سماء القطاع، لتقصف مئات الأهداف الأمنية ، والمؤسسات الاجتماعية، والإدارية، التابعة لحكومة حماس وما اتصل بها من مرافق مدنية، سقط على إثرها آلاف الضحايا، ما بين قتيل وجريح، في مجزرة رهيبة، أمام سمع العالم وبصره، ولا يزال العدوان مستمراً، والعدو ينذر بالمزيد !

وأمام هذا الحدث الرهيب نسجل الوقفات التالية :

أولاً : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ) المائدة/٨٢ : عن هذا العدوان ليؤكد هذه الحقيقة القرآنية، التي لقنها الله تعالى عباده المؤمنين؛ ليعُوها، ويعملوا بمقتضاها، فلا يتسلل إلى نفوسهم شك أن عدوهم حاقد لا تنفع معه المداراة، والمصانعة، و(التطبيع). إن قلوب (يهود) تنضح بالعداوة للمؤمنين، منذ أن بعث الله محمداً بالهدى ودين الحق. وقد عبر عنها أحد شياطينهم السالفين؛ حيي بن أخطب، حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بين السيف والنطع، بعد أن أخزاه الله، وأفشل سعيه، في غزوة

حرر في : ١/ ١/ ١٤٣٠ هـ

الأحزاب : (والله ما ندمت على عداوتك قط) .

ثانياً : الوهن الذي أصاب الأمة الإسلامية : فهم يرون إخوانهم في الدين، والنسب، واللسان، والتاريخ، والجغرافيا، وكل شيء! يذبحون ذبح الشياه، فلا يحركون ساكناً، ولا يحقون حقاً، ولا يبطلون باطلاً. فأما الحكومات فقد نجح العدو في تفريقها، وزرع بذور الشقاق بينها، وكبَّلها بالقوانين الدولية التي يفصِّلها على مقاسه، ويستدعيها حسب حاجته، ويقصيها إذا عارضت مصالحه. وصدق عليها ما رواه ثَوْبَانَ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا) فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ. وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ) فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: (حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) رواه أحمد. وأبو داود. حتى قال قائد شرطة (جنين) في مجزرة سابقة مخاطباً العرب: لو سمع أبو جهل بصراخنا، لأغاثنا، حمية، ومروءة، فكيف بإخوة الدين والدم !

وأما الشعوب، فلا تملك إلا البكاء، والاسترجاع، وتسيير المظاهرات الصاخبة، وإحراق الأعلام والدمى، التي لا تسمن ولا تغني من جوع. ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

ثالثاً : (بعضهم أولياء بعض) : صمت عالمي عند صنَّاع القرار الغربيين، وانحياز إلى جانب إسرائيل! يعجز مجلس الأمن أن يتمخض عن إدانة واضحة للإرهاب اليهودي، ويوزع العبء بين طرفين غير متكافئين، في ورع بارد، واستخفاف بالضحية. لقد عودنا الإعلام الغربي أن يملأ الدنيا ضجيجاً عند حصول أدنى حدث إرهابي ينسب إلى أطراف إسلامية، كما وقع أخيراً في بومباي، فلم الكيل بمكيالين؟ لقد بلغت الصفاقة بوزيرة الخارجية الأمريكية المنصرفة، كونداليزا رايس، أن تقول: (إننا ندرك أن العرب تعرضوا لقدر من الإهانة والإذلال، على يد الحكومة الأمريكية) فهل نحن ندرك، أم أننا لا نريد أن ندرك؟!

رابعاً : (إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ) كما قال ذلك مؤمنهم، عبد الله بن سلام،رضي الله عنه. هم أهل الغدر، والخيانة، ونقض العهود. وذلك يستدعي كامل اليقظة، والوعي، والحنكة السياسية، وحسن التقدير للموقف. لقد استدرج اليهود حكومة حماس إلى الفخ، وأوهموها بنوع من الأمن، ففتحوا المعابر، وسمحوا بدخول المساعدات، وأدلوا بتصريحات

مطمئنة، فابتلع المسلمون الطُّعم، وأقاموا حفلات تخريج الضباط، لترشقهم القذائف، وتفني شبابهم .

وقبل ذلك، أفلح اليهود في شق عصا الوحدة الفلسطينية، وألبُّوا كل فريق على الآخر، وعززوا الحسابات الحزبية لدى مختلف الفرقاء، ليتصدع الصف، ويتشاغل القوم في تصفية بعضهم بعضاً.

خامساً : (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) : إن قيام دولة إسرائيل قدر رباني، وحكة بالغة، (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) يونس/٩٩ (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) هود/١١٨ (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) الأنعام/١١٢ . جرت سنة الله بالابتلاء : (وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) محمد/٤، وعلَّق الله تغيير الأحوال بتغيير ما في الأنفس :(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد/١١. ولمَّا تعجب بعض المؤمنين، إثر غزوة أحد، من إدالة عدوهم عليهم، قال تعالى : (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) آل عمران/١٦٥. فلن يصلح حال المسلمين حتى يصلحوا أنفسهم، ويراجعوا دينهم، وينصروا ربهم ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) محمد/٧

إن القضاء على يهود لن يتم عبر القنوات الدولية،ولن تحركه الشعارات العلمانية، إن الفاتحين الجدد، الذين يشرفون بتحرير فلسطين، واستئصال يهود، عباد مسلمون، ينطق الله لهم الحجر، والشجر، ليخاطبهم بالوصف الذي شرفهم الله به؛ الإسلام، والعبودية، لا القومية، ولا الانسانية، ولا الشرعية الدولية؛ فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ، وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرِ: يَا مُسْلِمُ! يَا عَبْدَ اللَّهِ! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ) رواه مسلم

العقيدة والجهاد

(فإن الملائكة لم تضع أسلحتها بعد)

كلمة قالها جبريل عليه السلام، لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد تفرق الأحزاب، كما روى ابْنُ إِسْحَاقَ، رحمه الله : (وَلَمّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ انْصَرَفَ عَنْ الْخَنْدَقِ رَاجِعًا إلَى الْمَدِينَةِ وَالْمُسْلِمُونَ وَوَضَعُوا السّلَاحَ.فَلَمّا كَانَتْ الظّهْرُ أَتَى جِبْرِيلُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَمَا حَدّثَنِي الزّهْرِيّ ، مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إسْتَبْرَقٍ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا رِحَالَةٌ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ فَقَالَ أَوَقَدْ وَضَعْتَ السّلَاحَ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ قَالَ نَعَمْ فَقَالَ جِبْرِيلُ فَمَا وَضَعَتْ الْمَلَائِكَةُ السّلَاحَ بَعْدُ وَمَا رَجَعْتَ الْآنَ إلّا مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ إنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ يَأْمُرُك يَا مُحَمّدُ بِالْمَسِيرِ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَإِنّي عَامِدٌ إلَيْهِمْ فَمُزَلْزِلٌ بِهِمْ)سيرة ابن هشام - (ج ٢ / ص ٢٣٢)

بعد مضي اثنين وعشرين يوماً من القصف الوحشي الأرعن، والفتك الذريع بالمسلمين في غزة، وإهلاك الحرث والنسل، ينسحب اليهود، جارين أذيال الخيبة، لم ينالوا خيراً، يؤنب بعضهم بعضاً، ويشهد بعضهم على بعض بالفشل ، وعدم تحقيق الأهداف. بينما يلملم المسلمون جراحهم، ويستخرجوا الجثث من تحت الأنقاض، ويدفنوا شهداءهم ، يحسب بعض الناس أن الستار قد أسدل على هذا المشهد البئيس، وانفض المتفرجون، وطويت صفحة من

حرر في : ٢٣ / ١ / ١٤٣٠ هـ

صفحات الظلم المتلاحق.

لكن هيهات! فإن الملائكة لم تضع أسلحتها بعد.

ربما عجز البشر أن يردوا الحق إلى نصابه، لكن الذي له ملك السماوات والأرض، وهو على كل شيء شهيد، يجري الأمور بحكمته البالغة، ومشيئته النافذة، يمهل ولا يهمل، وكل شيءٍ عنده بمقدار. إن المتأمل لهذا الحدث يستجلي من وراء الغبار القاتم للتفجيرات، ويستنصت من خلف ضجيج الطائرات، معاني عظيمة، تحققت بفعل الله، من خلال جنوده في السماوات والأرض:

أولاً: حقيقة النصر والهزيمة: إن التمسك بالمبادئ، والصبر عليها، والموت في سبيلها، لهو النصر الحقيقي. إن النصر والهزيمة لا يقاسان بالأعداد، والحسابات المادية، وشدة المعاناة، وإلا لكان أصحاب الأخدود، الذين حُرِّقوا بالنار، عن بكرة أبيهم؛ رجالاً، ونساءً، وأطفالاً، خاسرين مهزومين، ولكان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، منتصرين غالبين! وهيهات. لقد أنطق الله رضيعاً حين ترددت أمه بين إلقاء نفسها معه في الأخدود، وبين التخلي عن المبدأ، فقال مثبتاً لها: (اصبري يا أماه، فإنك على الحق!)

وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام، من الشدة واللأواء، في حروبهم مع المشركين الشيء العظيم:

- ففي يوم أحد، قتل منهم سبعون، وشج وجهه الكريم صلى الله عليه وسلم، وكسرت رباعيته، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنتيه الشريفتين، ووقع في حفرة من حفر أبي عامر الفاسق!

- وفي بئر معونة، بعد أحد، قتل سبعون من خيار القراء، غدراً.

- وفي الأحزاب، وصف الله حالهم بقوله: (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) الأحزاب/١٠، ١١

فهل كانوا مهزومين مخذولين؟ لا والله، بل كان نصراً معنوياً، حقيقياً، قاد، فيما بعد، إلى سلسلة الانتصارات المادية، والفتوحات الإسلامية.

ثانياً: إن مما صنعه الله تعالى، لهذه الأمة، من وراء هذا الحدث المدوي، أن أعاد إلى مصطلح (الجهاد) رونقه، وبهاءه، وجلالته، بعد أن بات لدى بعض الناس (سُبَّة) و (تهمة)

، نتيجة لبعض الممارسات الخاطئة. صار كثير من المسلمين، ولو من الناحية النظرية فقط، يلوِّح بهذا الشعار، ويرى أنه المخرج من هذه الحال.

ثالثاً : وإن مما صنعه الله لهذه الأمة، من وراء هذا الحدث، أن عادت قضية (فلسطين) إلى الصدارة، بعد أن كادت تغيب خلف أروقة مؤتمرات السلام المزعومة، وبعد أن دب اليأس إلى نفوس جمهور الأمة، وهم يرون أصحاب الشأن من ممثلي السلطة، وفتح، ومنظمة التحرير، يسارعون إلى للقبول بكل عرض هزيل، ويرتمون في أحضان جلاديهم، دون أن يخرجوا من مائدة اللئام، ولا بفُتات.

رابعاً : ومما صنعه الله لهذه الأمة المترامية الأطراف، أن أحيا فيها روح الانتماء للإسلام، والشعور بشعور الجسد الواحد، بعد أن مزقتها القوميات، والخلافات، والعصبيات، فعادت تتألم جميعاً لألم عضو منها، وتخطت قلوبها الحدود، والحواجز، والانتماءات، لتتعلق ببقعة صغيرة من الأرض، يقال لها (غزة) .

خامساً : تأكيد ما قرره القرآن العظيم، وأرساه في قلوب المؤمنين، من شدة عداوة اليهود للذين آمنوا : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ) المائدة/٨٢، وانكشاف الوجه الكالح لليهود أمام ناظري العالم، بجميع فئاته، وشعوبه، بفجوره، وبطشه، ووحشيته .

سادساً : ويبقى أن (الملائكة لم تضع أسلحتها) ، فما نرجوه من انتقام الله من الظالمين، وجبره للمنكسرين، عظيم . ذلك أن الله تعالى، حكم، عدل، يمهل للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته . فلربما سلط الله على هذه الأمة اليهودية المغضوب عليها، من الآفات، والاختلافات، والمصائب ، ما لا يخطر بالبال، وذلك آت لا محالة، في ملحمة ختامية، بشر بها من لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وسلم : (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ) رواه البخاري. ولكننا نرجو، قبل ذلك، أمراً يشفي به الله صدور قوم مؤمنين. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
العقيدة والحياة	٩
صبغة الله	١١
التدين الحق	١٥
قل هذه سبيلي (١) وحدة السبيل	٢١
قل هذه سبيلي (٢) الإخلاص	٢٣
قل هذه سبيلي (٣) العلم	٢٥
قل هذه سبيلي (٤) الاجتماع	٢٩
قل هذه سبيلي (٥) التنزيه	٣٣
قل هذه سبيلي (٦) البراءة من المشركين	٣٥
العقيدة والاتباع .. بدعة المولد	٣٩
العقيدة والعلم	٤٣
العقيدة والعمل	٤٧
العقيدة والسلوك	٥١

العقيدة والسياسة ٥٥
آفاق العقيدة ٦١
وهج الصيف ٦٥
سنريهم آياتنا ٦٩
الحدث الكوني والسبب الشرعي ٧٣
العقيدة والغيث ٧٧
العقيدة والنفس (١) ٨٣
العقيدة والنفس (٢) قواعد في معاملة النفس ٨٧
العقيدة والإنسان ٩١
العقيدة والنور ٩٥
فما ظنكم برب العالمين ٩٩
العقيدة والأخلاق (١) ١٠٣
العقيدة والأخلاق (٢) ١٠٥
العقيدة والقول ١٠٩
فقه البدايات ١١٣
العقيدة والثبات ١١٧
العزيمة على الرشد والإجازة ١٢١
العادة والعبادة ١٢٧
العقيدة والصلاة ١٢٩
العقيدة والزكاة ١٣٣
مهوى الأفئدة ١٣٧
حكمة الصيام ١٣٩
أسرار الصيام ١٤٣
هدى للناس ١٤٥
إيماناً واحتساباً ١٤٩
العقيدة والقيام ١٥١
فرحة الصائم وبهجة العيد ١٥٥
الحصاد الكريم وحصاد الهشيم ١٥٧
العقيدة والحج (١) التوحيد والإخلاص ١٥٩
العقيدة والحج (٢) ١٦٣

العقيدة والحج (٣) تعظيم شعائر الله وحرماته وإقامة ذكره	١٦٥
العقيدة والحج (٤) الولاء والبراء	١٦٧
العقيدة والحج (٥) منافع آخرى	١٧١
العقيدة والنسيكة	١٧٥
العقيدة والذكر	١٧٧
العقيدة والمجتمع	١٨٣
العقيدة والأسرة (١)	١٨٥
العقيدة والأسرة (٢)	١٨٧
العقيدة والأسرة (٣)	١٩١
العقيدة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١)	١٩٥
العقيدة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢)	١٩٧
العقيدة والأمن الاجتماعي .. الإيمان قيد الفتك	٢٠١
العقيدة والإجازة .. كل الناس يغدو	٢٠٥
العقيدة والأفراح	٢٠٧
العقيدة والسياحة	٢١١
العقيدة والعيد .. فبذلك فليفرحوا	٢١٥
العقيدة والآخر	٢٢١
العقيدة والتعارف	٢٢٥
العقيدة والحوار (١)	٢٢٩
العقيدة والحوار (٢)	٢٣٣
العقيدة والباطنيون	٢٣٧
الخواء العقدي	٢٤١
العقيدة والنصارى .. زيارة البابا	٢٤٥
العقيدة واليهود .. أحداث غزة	٢٤٩
العقيدة والجهاد .. فإن الملائكة لم تضع أسلحتها بعد	٢٥٣